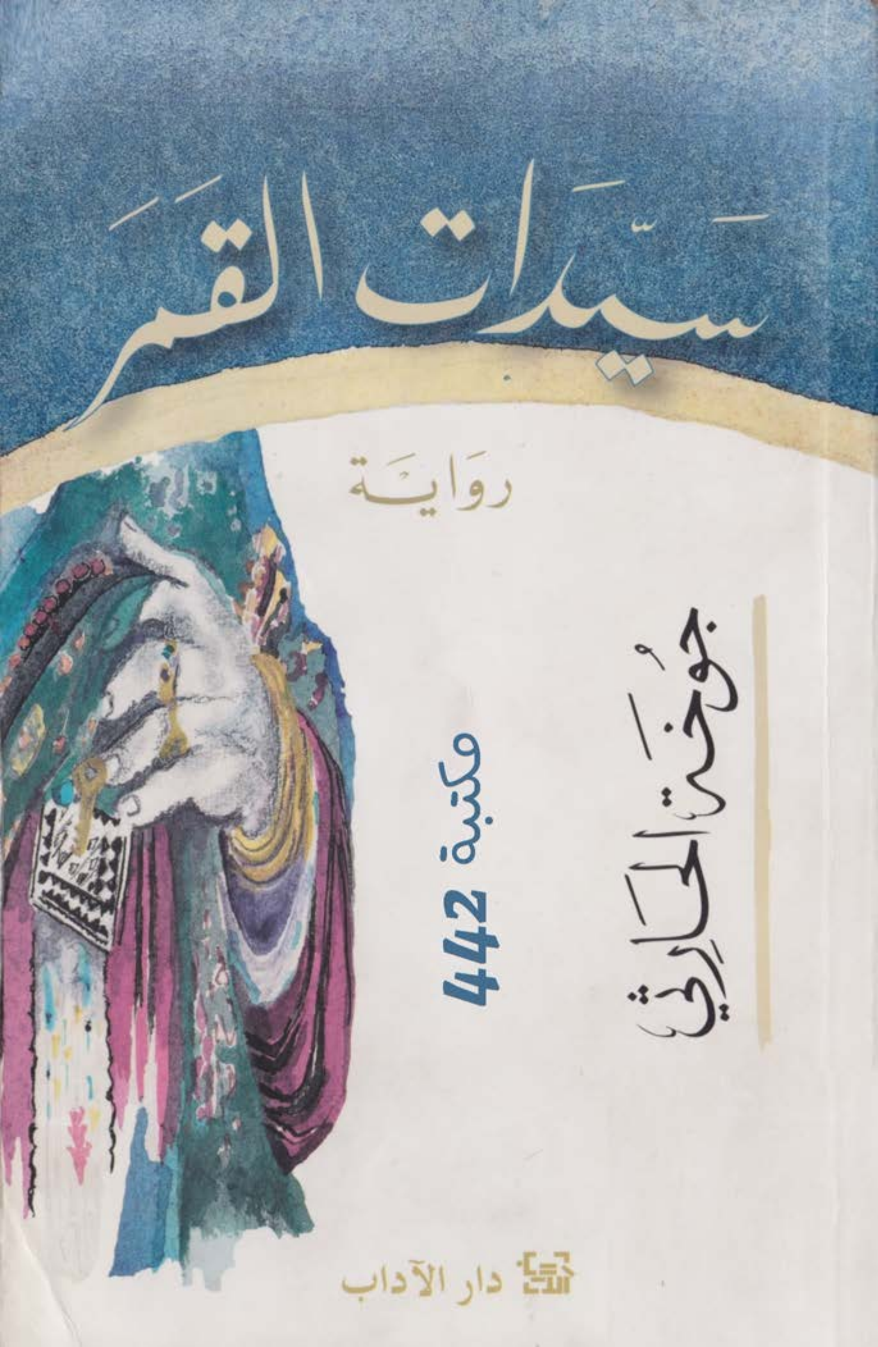

سيدات القمر
رواية
جوخة الحارثي
مكتبة 442
دار الآداب

سيّدات القمر

سيّدات القمر

جوخة الحارثي/ كاتبة من سلطنة عُمان

الطبعة الأولى عام 2010

ISBN 978-9953-89-155-2

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

ص.ب. 4123 ـ 11

بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

Website: www.adabmag.com

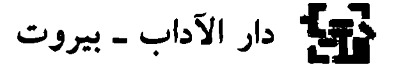
جوخة الحارثي

سيّدات القمر

رواية

فازت الترجمة إلى الانجليزبة من هذه الرواية

بجائزة مان بوكر الدولية لعام ٢٠١٩


دار الآداب ـ بيروت

إلى أمّي

ميا التي استغرقت في ماكينة خياطتها السوداء ماركة الفراشة، استغرقت في العشق.

عشق صامت لكنّه يهزّ بدنها النحيف كلّ ليلة في موجات من البكاء والتنهّد. شعرت مرارًا بأنّها ستموت تحت وطأة الرغبة في رؤيته، حلفت في سجودها في صلاة الفجر: «والله العظيم يا ربّ لا أريد شيئًا... فقط أن أراه... والله العظيم يا ربّ لا أريده أن يلتفت لي.. فقط أن أراه..». ظنّت أمّها أنّ ميا الصامتة الشاحبة لا تفكّر في شيء في هذا العالم خارج حدود خيوطها وأقمشتها، وأنّها لا تسمع غير ضجيج ماكينة الخياطة، لكن ميا كانت تسمع كلّ الأصوات في العالم وترى كلّ الألوان، وهي لا تتزحزح طوال النهار وشطرًا من الليل من كرسيّها الخشبي قبالة الماكينة، ولا تكاد ترفع رأسها عنها إلاّ لتناول المقصّ أو إخراج مزيد من الخيوط من سلّتها البلاستيكيّة المحفوظة في جوف السحّارة. أحسّت الأمّ بامتنان مذنب لقلّة طعامها وتمنّت في سرّها أن يأتي من يقدّر موهبتها في الخياطة وبعدها عن النهم ويزفّها لبيته، وجاء.

كانت تجلس على كرسيّها الخشبي خلف الماكينة في آخر الدهليز الطويل حين جاءت أمّها متهلّلة ووضعت يدها على كتفها: «ميا... يا بنتي... ولد التاجر سليمان يخطبك» تشنّج جسد ميا، أصبحت يد أمّها ثقيلة بالغة الثقل على كتفها، جفّ حلقها ورأت خيوطها تلتفّ حول رقبتها كمشنقة. ابتسمت الأمّ: «ظننتك كبيرة على خجل البنات»، وانتهى الموضوع. لم يفتحه أحد ثانية. انشغلت أمّها بإعداد ملابس العرس وتحضير خلطات البخور وتنجيد الوسائد ونشر الخبر بين الأقارب. سكتت أخواتها وسلّم أبوها الأمر لأمّها، فهنّ بناتها في النهاية ومواضيع الزواج مواضيع حريم.

ميا تركت الصلاة سرًّا، قالت بصوت خافت: «يا ربّي حلفت بك، حلفت لك إنّي لا أريد شيئًا... أريد فقط أن أراه... حلفت لك إنّي لن أفعل خطأ ولن أبوح بما في قلبي. حلفت لك بكلّ شيء. فلماذا أرسلت ولد سليمان هذا لبيتنا؟ تعاقبني على حبّي؟ لكنّي لم أبح له، لم أبح حتى لأخواتي... لماذا أرسلت ولد سليمان لبيتنا؟ لماذا؟».

قالت خولة: «وتتركينا يا ميا؟» سكتت ميا. قالت أسماء: «هل أنت مستعدّة؟»، وضحكت: «تتذكّرين وصيّة أعرابيّة لابنتها العروس التي وجدناها في كتاب المستطرف في المخزن؟»، قالت ميا: «لم تكن في كتاب المستطرف»، غضبت أسماء: «ما أدراك أنت بالكتب؟.. كانت الوصيّة في كتاب المستطرف في كلّ فنّ

مستظرف، الكتاب المجلّد بالأحمر في الرفّ الثاني.. الأعرابيّة توصي العروس بالماء والكحل والاهتمام بالطعام والشراب»، قالت ميا ساهمة: «نعم وأن أضحك إذا ضحك وأبكي إذا بكى وأرضى إذا رضي..»، تدخّلت خولة: «ما بك يا ميا؟ لم تقل الأعرابيّة ذلك. تقصد أن تفرحي لفرحه وتحزني لحزنه»، ازداد صوت ميا خفوتًا: «ومن يحزن لحزني أنا؟».. بدت كلمة الحزن غريبة ونشرت جوًّا من الضيق بين الأخوات.

حين رأت ميا عليّ بن خلف، كان قد أمضى سنوات في لندن للدراسة وعاد بلا شهادة. لكنّ رؤيته صعقت ميا في الحال. كان طويلاً لدرجة أنّه لامس سحابة عجلى مرقت في السماء، ونحيلاً لدرجة أنّ ميا أرادت أن تسنده من الريح التي حملت السحابة بعيدًا. كان نبيلاً. كان قدّيسًا. لم يكن من هؤلاء البشر العاديّين الذين يتعرّقون وينامون ويشتمون. «أحلف لك يا ربّي إنّي لا أريد غير رؤيته مرّة أخرى». ورأته، في موسم حصاد التمر، مستندًا إلى نخلة وقد خلع كمّته لشدّة الحرّ. رأته فبكت، انتحت عند أوّل الساقية وأجهشت في البكاء.

ثم أمعنت التركيز في روحه، استجمعت كلّ ذرّة في وجودها وسمّرتها في وجوده. توقّفت عن التنفّس وكاد قلبها أن يكفّ عن النبض من فرط التركيز. وجّهت روحها بكلّ قوّة باتّجاه روحه، أرسلتها وهي غائبة تمامًا عن كلّ العالم المادّي حولها، تشنّج جسدها وكاد يتهاوى وهي تبعث إليه بكلّ هذه الطاقة الهائلة،

وانتظرت إشارة منه، أيّ إشارة تدلّ على أنّ روحه قد استقبلت الرسالة، لكن أيّ إشارة لم تأت.

«أحلف لك يا ربّي إنّي لا أريد غير رؤيته، بالعرق على جبينه مرّة أخرى، بيده على جذع النخلة، بالتمرة يلوكها في فمه. وأحلف لك يا ربّي لن أقول لأحد عن هذا البحر الطامي فيّ. وأحلف لك يا ربّي إنّي لا أريده أن يلتفت لي، من أنا؟ بنت لا تعرف غير الخياطة، لست مثقّفة كأسماء ولا جميلة كخولة. وأحلف لك يا ربّي سأصبر حتى شهر عنه، هل ستدعني بعد الشهر أراه؟ وأحلف لك يا ربّي لن يفوتني فرض ولا نفل ولن أحلم بأيّ شيء يغضبك. وأحلف لك يا ربّي لا أريد أن ألمس يده ولا شعره. وأحلف لك يا ربّي لا أريد أن أمسح العرق عن جبينه تحت النخلة». وبكت، بكت كثيرًا، وحين جاء ولد سليمان التاجر لبيتهم تركت الصلاة ثم عادت إليها بعد العرس، قالت لنفسها إنّ هذا جزاء يمينها، الله عرف أنّها لم تكن صادقة في كلّ كلمة حلفت بها وعاقبها على خطيئتها.

حين حبلت بعد أشهر، تمنّت أن تكون ولادتها سهلة كولادات أمّها. تذكّرت كلامها: «كنت ألاحق دجاجة في الحوش لأذبحها لمّا فاجاءنا خالي على الغداء، وفجأة أحسست كأنّي انفجرت، تقلّبت على الأرض من الألم وجاء أبوك بالداية مريّة، ما إن رأتني حتى قالت: وقتها! أسندتني حتى دخلنا الغرفة فأغلقت الباب، أوقفتني على قدميّ ورفعت كلتا يدي لأستمسك بالوتد المثبّت في

الجدار بكلّ قوّتي، عندما خذلتني رجلاي صاحت الداية مريّة ـ الله يسامحها ـ: «يا عيب الشوم.. بنت الشيخ مسعود ستلد راقدة وما قدرت تقف»، فوقفت متشبّثة بالوتد حتى انزلقتِ منّي يا ميا في السروال وكدت تموتين مختنقة لولا أن حلَّت الداية مريّة يديّ وسحبتكِ.. إيه والله، لم تتكشّف عليّ ولم يرني مخلوق.. اذهبن أنتنّ إلى مستشفيات مسكد، تصبحن فرجة للهنديّات والنصرانيّات.. إيه والله يا ميا ولدتكِ أنت وكلّ إخوتكِ واقفة مثل الفرس.. الله يسامحك يا داية مريّة.. وأنا ممسكة بالوتد بكلتا يديّ وهي تصيح بي: «يا ويلك لو سمعتُ صرخة.. كلّ الحريم يلدن.. يا فضيحتك لو صحتِ.. يا فضيحتك يا بنت الشيخ..»، ولم أقل كلمة واحدة غير: «يا ربّي»، واليوم يلدن راقدات وصراخهنّ يسمعه الرجال من آخر المستشفى.. ذهب الحياء.. إيه والله..».

قالت ميا لولد التاجر سليمان حين أصبحت لا تستطيع النوم من تكوّر بطنها: «اسمع، أنا لن ألد هنا على أيدي الدايات، أريد أن تأخذني لمسكد»، قاطعها: «قلت لكِ ألف مرّة اسمها مسقط»، أكملت كأنّها لم تسمعه: «أريد أن ألد في مستشفى السعادة»، قال: «ويسقط ولدي في أيدي النصارى؟»، سكتت ميا وحين دخلت شهرها التاسع أخذها زوجها إلى بيت عمّه في وادي عدي في مسقط حتى ولدت في مستشفى الإرساليّة، مستشفى السعادة، بنتًا ضئيلة.

فتحت ميا عينيها ورأت ابنتها بين يدي أمّها. نامت وحين

فتحت عينيها مرّة أخرى كانت البنت ترضع من صدرها. وحين جاء ولد سليمان التاجر لرؤية المولودة قالت له ميا إنّها تريد أن تسمّيها «لندن»، ظنّ أنها متعبة من الولادة وتهذي، في اليوم التالي عادت والبنت وأمّها إلى بيت عمّه وأخبرت أقاربه أنّ المولودة اسمها لندن. طبخت لها امرأة عمّ زوجها مرق الدجاج الطازج وخبزت لها خبز الرقاق، وسقتها الحلبة بالعسل، ثم ساعدتها في غسل يديها وجلست بجانب فراشها: «يا ميا يا بنتي»، قالت ميا: «نعم»، ربّتت المرأة عليها وقالت لها: «ما زلتِ مصرّة على هذا الاسم الغريب للمولودة؟ أحد يسمّي بنته لندن؟ هذه اسم بلاد يا بنتي.. بلاد نصارى.. كلّنا متعجّبون جدًّا، وأظنّ صحّتك الآن تسمح لك بالتفكير مرّة ثانية في اسم للبنت.. سمّيها على اسم أمّك سالمة». كانت الأمّ حاضرة فغضبت: «ليش يا حبّة عيني تريدي أن تسمّيها على اسمي وأنا حيّة أُرزق.. تتفاءلي لي بالموت؟.. من أجل أن تخلفني البنت؟». استدركت زوجة العمّ: «حاشا لله ما قصدت.. كثير من الناس يسمّون أبناءهم على اسم آبائهم وهم بخير وعافية.. بعيد الشرّ عنك يا سالمة.. سمّيها مريم أو زينب أو صفيّة.. أيّ اسم غير لندن». أمسكت ميا البنت ورفعتها في الهواء: «ما له اسم لندن؟.. حرمة في بلاد جعلان اسمها لندن..». قالت زوجة العمّ بنفاد صبر: «تعرفين أنّ هذا ليس اسمها. هذا مجرّد لقب لقَّبها الناس به لشدّة بياضها.. وهذه البنت يعني..»، أنزلت ميا البنت إلى حجرها: «ليست بيضاء مثل عائلة ولد التاجر، لكنّها بنتهم، واسمها لندن».

قرّرت سالمة أنّ الوقت قد حان لترجع ابنتها وحفيدتها إلى بلدها العوافي لتكمل أربعين النفاس في بيت أمّها وتحت رعايتها. قالت لزوج ابنتها: «اسمع يا ولدي يا عبد الله، هذه حرمتك تبكَّرت ببنت، والبنت بركة تساعد أمّها وتربّي إخوتها، نريد للنفساء أربعين دجاجة حيّة وزجاجة عسل من عسل الجبل الأصلي، وزجاجة سمن بقر بلدي، ولمّا تكمل لندن أسبوع احلق شعرها وتصدّق بوزنه فضّة واذبح عنها شاة ووزّع اللحم على الفقراء». نطقت حروف «لندن» بتفخيم، تغيّر وجه عبد الله ولكنّه هزّ رأسه وأعاد عائلته الصغيرة وحماته لبلدهم العوافي.

كانت الطائرة تخترق سحبًا كثيفة وعينا عبد الله تجافيان النوم على الرّغم من الرحلة الطويلة إلى فرانكفورت، عندما كانت النساء تلد في مستشفى السعادة في مسقط لم تكن ماكينات الخياطة السوداء ماركة الفراشة قد وصلت إلى عمان بعد. كيف كانت ميا تخيط على هذه الماكينة؟ الكهرباء كلّها لم تكن قد وصلت بعد إلاّ إلى مناطق محدودة، ربّما كانت هناك مستشفيات أخرى قد بُنيت فعلاً حين وُلدت لندن، بالتأكيد كانت هناك مستشفيات أخرى، مستشفى الرحمة في مطرح على الأقلّ، وربّما مستشفى النهضة في روي أيضًا، إذن لماذا أصرّت ميا على أن تلد في مستشفى الإرساليّة؟ لا أتذكّر.. لا أستطيع أن أربط كلّ هذه الأحداث، أمّها قالت لي: «اذبح عن لندن، وأحضر عشرين دجاجة حيّة لامرأتك النفساء»، وفخّمت حروف العشرين مع أنّي كنت سأحضر ثلاثين دجاجة وشاة أيضًا.. امرأة عمّي في بيت وادي عدي القديم وقفت في الحوش وعنّفتني بأعلى صوتها: «لندن؟ ووافقت؟ ما لك شور في اسم ابنتك؟..»، لا أعرف إن كانوا قد هدموا البيت أو باعوه. منذ مات عمّي رأيتها مرّة أو اثنتين فقط. حين تخرّجت

لندن في كلّيّة الطبّ في جامعة السلطان قالت: «أريد سيّارة بي أم دبليو يا أبي»، وميا وضعت ماكينة الخياطة ماركة الفراشة في المخزن حين انتقلنا لبيتنا الجديد. لماذا توقّفت عن الخياطة؟ متى توقّفت؟ بعدما ولدت محمّدًا، في السنة التي ورثت فيها تجارة أبي وانتقلنا إلى مسقط. ميا فرحت جدًّا، قالت إنّها لا تريد أن تظلّ طوال حياتها تحت سيطرة أمّها، وحين ولدت محمّدًا توقّفت عن الخياطة، قبل خمسة عشر عامًا لمّا فتحوا الطريق الجديد في الجنوب وبنوا المصنع. كانت حنان صديقة لندن تُدرِّس في مدرسة ابتدائيّة في صلالة حين اتّصلت في منتصف الليل لتخبرنا أنّ جماعة من المراهقين هاجموا سكن المعلّمات واغتصبوا بعضهنّ، اغتصبوا حنان أيضًا. وميا طبخت وليمة كبيرة بمناسبة البيت الجديد في مسقط ودعت كلّ صديقاتها. مدّت سماطًا طويلاً وصفّت عليه المأكولات. كان سالم في الابتدائي، ولم يكن محمّد يبدو مختلفًا عن أيّ رضيع آخر. كانت ميا مبتهجة ولبست في الليل قميصها الكحلي. قلت لها حين ناموا: «تحبّينني يا ميا؟» فجفلت. سكتت ثم ضحكت.. ضحكت بصوت عالٍ أزعجني.. قالت: «من أين جاء لك كلام المسلسلات هذا يا رجل.. أم أنّ الدشّ والأفلام المصريّة خرّبت عقلك؟..». محمّد وقف على ركبتيّ وشدّ لحيتي بقوّة. فضربته ميا، وبكى كثيرًا. لم أجرؤ أبدًا على حلق لحيتي حتى بعدما مات أبي، وحين فتحوا فصول محو الأمّيّة دخلت ميا الصفّ السادس مباشرة لأنّها كانت تعرف القراءة والكتابة وبعض الحساب. قلت لها: «يا ميا.. محمّد صغير. لمّا يكبر ادخلي

المدرسة»، قالت: «يا رجل أريد أتعلّم إنجليزي»، كان ذلك قبل أن نأتي بالدشّ إلى البيت، حتى عندما سألتها، وهي ترتدي القميص الكحلي، إن كانت تحبّني لم يكن الدشّ قد ظهر بعد، ولم أكن أتابع أيّ أفلام مصريّة. حين احتضر أبي في مستشفى النهضة مددت يدي نحو يده فأزاحها بكلّ عزم. وحين شيّعنا الجنازة خذلتني ركبتاي. كان ذلك ومحمّد له سنة واحدة فقط. وحين سألت ميا: «هل تحبّينني؟» ضحكت ضحكة عالية جدًّا. تهدّمت كلّ جدران البيت الجديد من ضحكتها وهرب الأطفال. لكن ميا لم تكن أيضًا تشاهد المسلسلات. سالم أولع بالمسلسلات المكسيكيّة ثم ملَّها واستغرق في ألعاب الفيديوجيم، كلّما سافرنا دبي اشترى فلمين أو ثلاثة، قالت أمّ ميا: «بنتي ميا يا ولدي عبد الله في عيونك ولا تأخذها عنّي مسكد، ما أحد أحسن منها في الخياطة وما تحبّ الأكل والكلام الكثير». قلت له: «أرجوك يا أبي أريد أسافر مصر أو العراق أدرس في الجامعة»، فشدَّني من رقبتي وصرخ: «وحياة هذه اللحية ما تطلع من عمان.. تريد تتسفّل؟ وترجع من مصر والعراق حالق لحيتك تدخّن وتشرب؟..»، واشتغلت في تجارته بعد الثانويّة مباشرة لكنّي لم أنتقل تمامًا لمسقط حتى توفّي. لندن كانت جميلة جدًّا وممتلئة وكلّ عصر كانت ميا تحمّمها في الفلج وهي تضحك. كنت أشتري لها الهاينز والميلوبا. هي الطفلة الوحيدة في العوافي التي تأكل هذه الأشياء. كنت آتي بها من الكانتين وميا تتباهى بها. أبي صاح بي: «يا ولد.. يا ولد»، كنت أبًا لثلاثة أطفال، لم أكن ولدًا... اقتربت منه فبدأ مرّة أخرى

بخلع دشداشته وفانيلته الداخليّة، لمعت شعيرات صدره البيضاء القليلة في نور الشمس الواهن المتسلّل من الستائر الثقيلة، اقتربت من الستائر فأشار بإصبعه: «إيّاك إيّاك»، فتركتها. صاح في نوبة خرف عاودته لسنتين قبل وفاته: «يا ولد.. يا ولد.. اربط العبد سنجر في العمود الشرقي من الحوش ويا ويل من يقدّم له الماء أو الظلّ». قرفصت بجانبه: «يا أبي الحكومة حرّرت العبيد من زمان وسنجر سافر للكويت». كلّ صيف لندن تقول: «يا أبي نزور الكويت» وميا ترفض. «نهرب من الحرّ للأحرّ؟ والله ما أنا رايحة الكويت». وابنة سنجر تزوّجها عماني ورجعت لتعيش في مسقط. عرفتني حين رأتني في مستشفى النهضة حيث تعمل ممرّضة. رأت أبي المحتضر ولوت فمها. صاح أبي وشفتاه السوداوان ترجفان: «اربط العبد سنجر حتى لا يعود يسرق خيش البصل مرّة أخرى». وحين أسكت يلوّح لي بعصاه: «يا ولد ما تسمع؟ أقول لك أدِّبه كي لا يعود للسرقة». لندن تحبّ اللعب في الماء. وهي في السادسة عنّفتني ميا على تركها ساعتين تلعب في مياه السيل العكرة، وهدّدتني بأنّها ستصاب بالكساح. بقيت عدّة أيّام لا أستطيع النوم وأنا أراقب قدميها الصغيرتين لكنّها لم تصب بسوء وظلّت تجري كالغزال. كانت شفتا أبي مسودّتين وحاجباه منكفئين ورذاذ اللعاب يتطاير من فمه: «يا ولد.. ربطت العبد سنجر السارق في العمود الشرقي؟». أمسكت بيده أقبّلها فأزاحني: «يا أبي الحكومة حرّرت العبيد وسنجر... الحكومة يا أبي». زمجر كأنّما سمعني أخيرًا: «ما لها الحكومة؟ سنجر عبدي أنا وليس عبدها حتى تحرّره. أنا

اشتريت أمّه ظريفة بعشرين قرشًا فضيًّا، وأطعمتها في الوقت الذي كان فيه شوال الأرزّ بمائة قرش فضّي.. نعم مائة قرش.. قرش ينطح قرش.. آه يا ظرُّوف.. حلوة يا ظرُّوف.. ناعمة يا ظرُّوف.. لكن كبرت.. بطرت فزوّجتها حبيب وولدت هذا السارق.. ما لها الحكومة؟ عبدي أنا.. كيف يسافر ولا يستأذن منّي؟ كيف يا ولد؟». وحين يعاوده الارتجاف ويسيل العرق على رقبته وصدره أمسحه عنه بفوطته الزرقاء المعلّقة دومًا على مسمار في الباب. اختفت الفوطة بعد وفاته. حين دخلت حجرته أتمرّغ على الأرض في بكاء لا يهدأ، غطّاني العرق ولم أجد الفوطة. ماكينة الخياطة أبو فراشة اختفت هي أيضًا. لم أدخل المخزن لكنّي أعرف أنّ ميا تخبّئها في مكان ما هناك. ميا تصنع طبق السمبوسة اللذيذ ولم أحبّه إلاّ من يدها. وحين انتقلنا للبيت الجديد صنعت طبقًا كبيرًا من السمبوسة مع الأطباق الأخرى. قلت لها: «يا ميا دعي الخادمة تساعدك في الطبخ»، فسكتت، وبعد بضعة أشهر أصرّت على إرسال الخادمة لبلدها فجأة. وفي الليل كانت الغرفة معطّرة وقميصها الكحلي شفّافًا وقلت لها: «تحبّينني يا ميا؟» فسكتت. ثم ضحكت. ضحكت. ضحكت. كنت أطول ولد في الصفّ وكانت ظريفة قد شدَّت عليَّ دشداشتي من الرقبة حتى كدت أختنق. قال المعلّم: «عندك كام يا ولد؟»، كنت قد احتفظت بعيديّتي ولم أشتر غير قشاطة نارجيل واحدة فقلت: «نصف ريال»، وانفجر المعلّم في الضحك. أنا أكره الضحك، حين يضحك الناس يصبحون كالقرود وتهتزّ بطونهم ورقابهم، تظهر أسنانهم

الصفراء والمسوّسة، «عمرك كام؟»، «عشر أو اثنتا عشرة». وضحك المعلّم مرّة أخرى: «لا تعرف عمرك؟. . أنت كبير جدًّا على الصفّ الأوّل. .»، ما حيلتي والمدرسة لم تفتح إلاّ وأنا كبير جدًّا. صاح الطلبة ولم تكن دشاديشهم تزمّ رقابهم مثلي: «يا أستاذ ممدوح لا نريد أن يجلس عبّود الطويل أمامنا». أمسك أستاذ ممدوح بيدي وهمس: «عندك حلوى عمانيّة؟» فهززت رأسي نفيًا. قال: «بكرة هات حلوى». صاحت ظريفة: «حلوى؟ هكذا؟ لا قلم ولا دفتر. . قال حلوى؟»، كان حبيب قد هجرها وسنجر يهرب من البيت. كانت تكرّس وقتها للطبخ ولي. ميا مشغولة دائمًا، في البداية بالخياطة والأولاد ثم أصبحت مشغولة بالمدرسة والصديقات، وأخيرًا شغلها النوم. كنت أشمّ رائحة المرق في ظريفة وأنا أدسّ رأسي في صدرها لأنام. قال الأستاذ ممدوح: «عبد الله يعرف يكتب اسمه وسينتقل للصفّ الثالث»، وهكذا أصبحت في الصفّ الثالث مع أربعة من الطلبة كتبوا أسماءهم بنجاح على اللوح الأسود أو أحضروا الحلوى لأستاذ ممدوح.

انقشعت السحب وبدت السماء صافية بغتة من نافذة الطائرة الصغيرة. غفا عبد الله ولد التاجر سليمان للحظات قبل أن يستيقظ مهمهمًا: «لا تنكّسني في البئر أرجوك لا تنكّسني في البئر».

حين أشرقت الشمس امتلأ قلب سالمة بالإحساس بالرضا: لقد أصبحت جدّة. صحيح أنّ قطعة اللحم الحمراء هذه ذات الاسم الغريب ليس فيها شيء من جمالها لكنّها حفيدتها، وبطريقة ما كان هذا يُشعرها بالفخر. كنست الحوش ونضحته بالماء، نفضت الغبار عن السجّادة الفارسيّة الحمراء المطويّة في المخزن وفرشتها في الدهليز، لمَّعت الأواني الخزفيّة المصطفّة في روازن الغرفة الوسطى، وفرشت على الأرض فراشًا جديدًا لميا والمولودة. لم تدع خولة «الخرقاء» تخبز بل صنعت خبز الرقاق بنفسها للنفساء، ومزجته بالسمن البلدي وعسل الجبل، ثم تأكّدت أنّها أكلت حتى آخر لقمة في الصحن، وشربت الحليب المغلي بالحلبة حتى آخر قطرة. أعدّت القهوة بالهال وطبق الفواكه والتمر، صفّت زجاجتي عطر وفنجانًا صغيرًا من الزعفران في صينيّة مذهّبة مع مجمر البخور، وضعت القهوة والأطباق وصينيّة العطور في الدهليز استعدادًا لزيارات الجارات المرتقبة، استحمّت بالماء المخلوط بأعشابها الخاصّة ـ لم يلمس الصابون جسدها منذ خُلقت ـ ولبست أجمل ملابسها وتربّعت بجانب ابنتها الصامتة.

امتلأ الحوش بالصوت الجهوري: «بسم الله.. ما شاء الله.. اللهم صلِّ على النبي.. اللّهمّ صلِّ على الحبيب.. بسم الله.. عمى في عين الحاسد.. ما شاء الله.. البكر بنت، والبنت تربّي إخوتها.. عشرة صبيان يلحقوها إن شاء الله.. بسم الله.. اللَّهمّ صلِّ على النبي..».. لكزت سالمة ابنتها: «إيّاك يا ميا أن تقومي لأحد.. وصلت محبوبة الشايب..»، اجتازت ظريفة الدهليز بتمهّل وهي لا تتوقّف عن البسملة، تفحّصت نعومة السجّادة الفارسيّة بقدميها، أزاحت القماش الشفّاف عن صينيّة الفاكهة والتمر وقيَّمتها بنظرة خاطفة، حرّكت الملعقة الفضِّيّة الصغيرة في فنجان الزعفران لتتأكّد من كثافته ثم أكملت طريقها نحو الغرفة الوسطى.

همهمت سالمة بتهكّم: «أهلاً يا ظرُّوف.. جئتِ مبكّرة جدًّا.. لو انتظرتِ عشرة أيّام.. اعذريني رجلي توجعني ما أقدر أقوم لك». رمت ظريفة ببدنها الضخم على الأرض عند طرف فراش ميا.. تنفّست بتمهّل، ثم قالت: «استريحي يا الحبَّة.. ومن متى كنت تقومين لظرُّوف؟..»، حرّكت الخاتم الفضّي الضخم في سبّابتها اليمنى واتّكأت قليلاً على الفراش: «كيف حالك يا ميا؟ استحقّيتِ السلامة ونعمتِ بالعافية والمولودة يا بنتي.. اسمحيني ما قدرت آتي مبكّر لأنّ ولدي سنجر زادت معه بنت»، قالت سالمة: «مبروكين.. نعمتوا بالزايد... لم نسمع بالخبر يعني..»، ازداد اتّكاء ظريفة وميلها على ميا: «أمس.. الأفعى ولدت لسنجر بنت.. وانشغلنا..»، مالت سالمة على ابنتها بموازاتها: «واليوم؟

أنت وين من الفجر؟ ما قدرت تيجي تشوفي بنت سيدك؟.. لكن قال المتوصّف[1]: «تمشي الريول تخبّ مين الفواد محبّ ومين ما أشتهي علي كود وتعب»[2]. تمطّت ظريفة وضيّقت عينيها: «لا يا الحبَّة.. لكن تعرفي الحباب العود[3] ما يأكل إلاّ من خبز ظريفة، ويقول المتوصّف: اللي يودّك ودّه واللي يباك ابغيه واللي يصدّ بروحه شوري عليك ادعيه..[4] وأشوف بعد ما أحد زاركم لنصبّ قهوته.. اعطيني يا ميا البنت أدعي لها..»، قالت سالمة: «البنت تريد ترضع»، ابتسمت ظريفة وهزّت كتفيها في حركة خفيفة راقصة: «السمك زين يدرّ حليب»، قالت سالمة: «لكنّه ما زين للنفساء يا ظرّوف»... ضحكت بصوت عالٍ: «يقول المتوصّف: «اعط المريض شهوته والمعافي الله».. لكن ليش السمك المملّح ما دام حبابي عبد الله جاب لها أربعين دجاجة؟.. حتى الأفعى اللي عند سنجر جاب لها دجاج حيّ من عند سلاموه.. وعسل وسمن.. وبعدها ما تريدني أنا أطبخ لها.. يقول المتوصّف: «الحمار لمّا يشبع يرفس».. نسيت لمّا كانت ما لاقية حتى دشداشة تلبسها قبل أن يتزوّجها ولدي.. يا عيني عليك يا ولدي يا سنجر.. طاح

---

(١) المتوصّف: كناية عن قائل المثل.

(٢) تمشي الأرجل مسرعة حيث يحبّ الفؤاد، وحيث لا أشتهي أشعر بالتثاقل والتعب.

(٣) السيّد الكبير، والمقصود التاجر سليمان.

(٤) من يودّك بادله الودّ، ومن يُردك أرده، ومن يصدّ بنفسه عنك أشير عليك أن تتركه.

حظّك في الأفعى». تأفّفت سالمة: «قومي يا ميا اجلسي وأرضعي البنت». اعتدلت ميا جالسة فصاحت ظريفة: «الأفعى اللي عند ولدي ترضع راقدة مثل الكلبة... ما ترضى تجلس.. وسمّتْ البنت رشا.. وولدي مسكين سكت.. أيش بيقول؟.. بتلدغه لو تكلّم.. بدل ما يسمّوا حبيبة ومريم وفاطمة يسمّوا هذي الأسامي مرفْت ورباب ونباب وشاكاب وداداب وقلع عين إبليس... دنيا!.. وأنت يا ميا من اسمها بنتك؟».. ردّت ميا دون أن ترفع عينيها عن وجه الرضيعة: «لندن»، أطرقت ظريفة في سكون مفاجئ ثم نزعت جسدها الضخم عن الأرض وقالت: «أحسن أقوم أجهّز لك الغدا».

تنهّدت سالمة بارتياح حين قامت ظريفة وخرجت من الغرفة باتّجاه المطبخ.. أحسّت لوهلة أنّ اللون الأزرق الزيتي المطليّة به الغرفة أغمق ممّا يجب، لكنّها آثرت أن تبقى ابنتها النفساء فيها لأنّها دافئة ومزيّنة بالروازن الملأى بالأواني الصينيّة الثمينة، وبالمندوس الذي أعادت طليه وتذهيبه، كما أنّ الوسائد والطنافس مطرّزة ومكسوّة بالمزراي[1]. لقد كانت سالمة حريصة دائمًا على تزيين كلّ شيء ما عدا جسدها.

حين استأذنت زوجة المؤذّن للدخول هرعت سالمة حتى باب الدهليز لملاقاتها. برزت ظريفة من المطبخ الكائن في الركن

---

(١) المزراي نوع مزركش من الحرير الهندي، يُستخدم للثياب ولتنجيد الطنافس.

الشرقي من الحوش وهمهمت: «واعجبي!! شفيت رجول سالمة وقدرت تقوم!!»، ثم صاحت بصوتها الجهوري بينما كانت سالمة وزوجة المؤذّن تتصافحان بحرارة: «يقول المتوصّف: المحبوب محبوب جاء ضحى وجاء غروب، والرامد رامد جاء حاش وسامد»[1]، ثم ضربت فخذها بكفّها ودخلت المطبخ.

غرقت سالمة وزوجة المؤذّن ـ النازحة من سمائل منذ زمن بعيد، المنسي اسمها بعدما ناداها كلّ الناس بحرمة المؤذّن ـ في أحاديث متشعّبة بجانب ميا التي كانت تنظر لطفلتها الرضيعة في حياد صامت. جلست أسماء بجانبهنّ: «اسمعي يا أمّي لا بدّ أن تعملي هذه الخلطة لميا كما قال صاحب كتاب «فاكهة ابن السبيل»، إنّها مكوّنة من...»، ضحكت سالمة وقاطعتها: «أنا لا أحتاج لكتب الطبّ والدخاتر تعلّمني أيش أصنع لابنتي.. أنا ربّيت خمسة نفوس وما أحد علّمني شيء.. بتنقلع عيونك من هذه الكتب.. هيّا نتقهوى». قالت أسماء: «تعالي يا ميا، أثبت الطبّ الحديث أنّ التمر مفيد للنفساء مثلما ورد في القرآن حين هزّت السيّدة مريم النخلة فتساقط عليها رطبًا جنيًّا». نطقت أسماء كلمة «رطبًا» بالتشكيل لإبهار زوجة المؤذّن لكنّ أمّها شدّتها من يدها: «دعي عنك ميا.. ستأكل لوحدها»، قالت أسماء: «لماذا؟»،

(٢) المحبوب يظلّ محبوبًا مهما كان الوقت الذي يجيء فيه: ضحى أو عند الغروب، وغير المحبوب يظلّ غير مرضي عنه مهما اجتهد في الحصاد والسماد.

همست زوجة المؤذّن: «لأنّ فيها نجاسة.. لا يجوز أن تشارك الناس الأكل». امتعضت أسماء، كانت متأكّدة أنّ هناك حديثًا عن الرسول مفاده أنّ المرأة تخالط الناس في الأكل والشرب في كلّ حالاتها، ولكنّها لم تستطع قول شيء يخصّ الدين بحضور زوجة المؤذّن.

جاءت ظريفة لتصبّ لهنّ القهوة، كانت العبدة الوحيدة التي تشارك السيّدات في الأكل من الصينيّة نفسها، أعطت لنفسها هذا الامتياز ولم يناقشها فيه أحد، أخذت تقذف بلقم الحلوى الكبيرة في فمها وتلعق الزيت المتبقّي في أصابعها بتلذّذ فهمهمت زوجة المؤذّن: «شويّة شويّة على نفسك يا ظريفة، لا تنسي السكّري وجسمك ما شاء الله.. ما نحيفة يعني..». قهقهت ظريفة: «السكّري؟.. وأيش يخيفني في السكّري؟.. الموت واحد يا الحبَّة.. ما لازم نعذّب نفوسنا.. وجسمي ما شاء الله صحيح.. عمى في عين الحاسد.. أنا ما أتسمّع كلام الدخاتر.. سكّري وما سكّري.. ويقول المتوصّف: لحم الصغر يأكله الكبر..». أعادت ملء الفنجان لنفسها وشربت بتمهّل وهي توقّع بأصابعها الغليظة على الفنجان.. ابتسمت زوجة المؤذّن: «أستغفر الله.. لحم الصغر يأكله الكبر؟.. أيّ كبر بعد يا ظريفة؟ أستغفر الله من طول أمل بني آدم.. أنت على الأقلّ في الخمسين..». هزّت ظريفة كتفيها: «وما لها الخمسين يا الحبَّة؟.. الخمسين قمّة الشباب.. وولدي تو ولد.. ما أصبحت جدّة وأنا بعدني ما وصلت الأربعين مثل بعض الناس». تظاهرت سالمة أنّها لم تنتبه للملاحظة الموجّهة

لها وانشغلت بأكل فصوص البرتقال. لم يكن يضايقها أنّها أصبحت جدّة وهي ما تزال في أوّل الأربعين، ولم تخفِ لامبالاتها بحديث ظريفة، ولكنّ زوجة المؤذّن قالت: «صحيح والله أنت ما كبيرة يا ظريفة. . لكنّك استعجلت وزوّجت ولدكِ وهو صغير. .». اعتدلت ظريفة في جلستها، ازدردت قطعة الحلوى، ونظرت في عينيْ زوجة المؤذّن: «رحمة منّي عليها. . ما كنت أعرف أنّها أفعى. . أبوها مات وما تجوز على الميّت غير الرحمة، وأمّها مسكينة جُنَّت. . قلت البنيّة تقرب لنا، وصلة رحم، وحرام نتركها. . وأسألك أحسن أزوّج سنجر ولاّ أحسن أخلّيه ليركبه الرجال؟». . نظرت إليها سالمة بحدّة وهزّت زوجة المؤذّن رأسها: «أستغفر الله من هذا الكلام».

تعالت أصوات مزيد من النساء في الاستئذان لدخول البيت فأومأت سالمة لأسماء، قامت أسماء بتثاقل فهي لم تقتنع قطّ بأنّه لا يحقّ لها كفتاة غير متزوّجة أن تجالس النساء المتزوّجات وتستمع لأحاديثهنّ، خاصّة أنّ «الخبرة في الحياة» التي يسعى هذا التقليد لتجنيبها إيّاها أصبحت متاحة لها عن طريق الكتب: آه الكتب، تذكّرت أسماء هذه المتعة الطاغية فهرعت إليها.

على كثرة أسفاري ما زلت أفضّل الجلوس بجانب النافذة ومراقبة المدن وهي تصغر تدريجيًا حتى تتلاشى. قالت لندن: «تسافر كثيرًا يا أبي». لم أقل لها إنّنا في الغربة نتعرّف على أنفسنا بشكل أفضل كما في الحبّ. لندن لا تعرف الكثير عن الغربة ولكنّها تعرف بكلّ تأكيد عن الحبّ. ظلّ صمودها تحت سوط أمّها مثار افتتاني وألمي حتى كسرت السوط بنفسي وزوّجتها منه. قالت لأمّها: «ما أدراك أنت بالحبّ؟ منذ فتحت عينيك على الحياة لم تري غير أبي.. كم كان عمرك حين زوّجوك منه؟». كانت تظنّ بأنّي في الخارج لكنّي كنت هناك وسمعتها. وميا ضحكت. ضحكت بعنف مخيف. ولم تردّ عليها. لم تقل إنّها أحبّتني. لم تقل ذلك قطّ. أبي يُحتضر وأنا أختنق. الأنابيب الموصولة بجسده تنزع الحياة منّي. تمتم بأشياء لم أتبيّنها، وبكيت أنا بجانب سريره حتى طلع الفجر. محمّد كان له من العمر سنة واحدة فقط وكنت أفكّر فيه بجانب أبي المحتضر. لندن صرخت حين علمت بوفاته وزمجرت لها ميا بأنّ الصراخ يؤذي الميّت. قبل ذلك بأعوام قالت لي: «ألا ترى أنّك تبالغ في احترام والدك؟» فنهرتها. قال الأستاذ

ممدوح: «جئت خدمة للقوميّة والعروبة». قالت لندن: «أريد سيّارة بي أم دبليو تليق بي كطبيبة وبنت التاجر سليمان». لماذا نسبت نفسها لجدّها؟ قال سالم: «أريد النوع الجديد من البلاي ستيشن». قالت ظريفة: «أحسن نزوّج هذا الولد قبل أن يحدث ما لا يُحْمد عقباه». قالت عمّتي: «اذهب لمسقط ولا تهتمّ أنا سأطلّ على سير الأمور في البيت الكبير». قال شريكي أبو صالح: «هذه الصفقة مضمونة». قال المدرّس بيل: «لماذا لم تتعلّم الإنجليزيّة وأنت صغير؟ الآن أدركت أهمّيّتها؟ إنّها أهمّ لغة في العالم» أهمّ لغة في العالم. في العالم. العالم. العالم كبير جدًّا. صغير جدًّا. قال شريكي أبو صالح: «سنتخلّص من الأساليب القديمة في التجارة. الآن الإعلانات أهمّ شيء.. هي التي تحرّك العقول والجيوب». الجيوب. الجيوب. قلت له: «يا أبي أريد ريالاً..» فضحك. «ريال كامل لولد جربوع مثلك؟.. على أيّامي كنّا نتمنّى نشوف القرش بعيوننا». كتبت اسمها على جذع النخلة. ونقشته بالحديد المحمّى على باب المزرعة الحديدي. ميا. ميا. ميا. كان أجمل اسم في العالم. العالم الصغير. العالم الكبير. لا، شكرًا لا أريد العصير. أريد شايًا. نعم تي. مور تي بليز. لماذا يطنّ رأسي؟ انهارت البورصة فصرخت ميا: «يعني لن نبني بيتًا بثلاثة طوابق؟» ماذا أفعل؟ انهارت، انهارت البورصة. انهارت ميا، هرب حبيب، قالت ظريفة إنّه يهذي كثيرًا. وهرب. جنّ جنون أبي. كان ذلك في أوّل شيخوخته. هدّد وتوعّد ثم لم يعد لفتح الموضوع وعادت ظريفة متفرّغة لي. دسَّت قرن الفلفل في فمي يوم قرّر أبي تزويجها

من حبيب. عصرت أذني وقالت: «إن أخبرت أحدًا سيربطك أبوك ويعلّقك مقلوبًا في النخلة»، لم يكن عندي من أخبره. أحرقني الفلفل فشربت الكثير من الماء ولم أجد صدرها لأختبئ فيه في المساء. شريكي أبو صالح قال: «سندخل في الصفقة» وابن عمّي قال: «اشترِ عمارة. العقارات أضمن شيء في هذا البلد». هذا البلد. هذا البلد. كلّ شيء فيه يتغيّر بسرعة هائلة. قالت لندن: «لا أحبّ الخوير يا أبي لا مكان فيها للمشي»، قلت لها: «لا تبالغي»، قالت: «كلّ هذه الشوارع مصمّمة لأقدام السيّارات لا لأقدام البشر»، ثم نسيت هذا الكلام وانخرطت مع صديقاتها في جولات لا تنتهي بسيّارتها للمراكز التجاريّة. قال سالم: أحبّ العاصمة، صحيح ليست كدبي لكن نجد فيها كلّ ما نريد». لم أسأله ما الذي يريده بالضبط. محمّد لم يقل أشياء كثيرة في حياته. لم أفرح بهما كما فرحت بلندن. حين وُلدت كان العالم لا يسعني من السعادة. كانت جميلة وتشبه ميا. ظريفة حلفت إنّها لن تدخل بيت سالمة لتقوم بواجب صبّ القهوة للزائرات. قلت لها: «لكنّ المولودة ابنتي أنا وميا زوجتي ما شأنك بسالمة؟» فقالت إنّها لا تطيقها ولن تدخل بيتها. حين ولدت ميا محمّدًا قالت لن أذهب لبيت أهلي سأمكث هنا وعندي خادمة. أعطوني شهادة الثانويّة في حفل التكريم. في المساء أريتها أبي وأنا ألهث. ضحك وقال: «ولهثت هكذا مثل الكلب أمام الناس؟ . . لن تنفعك هذه القرطاسة ينفعك هذا»، وضرب جيب دشداشته. ضحك. ضحك. ضحك. لم أجد من أسأله كيف ماتت. حين كبرت سألت عمّتي. قالت: «إنّ شجرة

الريحان قتلتها». يضعون زهورًا في طاولات المؤتمرات ولا يضعون الريحان. «كيف يا عمّتي؟ كيف تقتل شجرة الريحان؟»، صرفتني بإشارة من يدها. ظريفة كرهت عمّتي وحين مات أبي وانتقلت أنا لمسقط لحقت بابنها سنجر في الكويت. كيف ماتت أمّي بشجرة الريحان يا ظريفة؟ «لا أعرف». ولكنّك تعرفين كلّ شيء يا ظريفة. ضحكت وقرّبتني منها فشممت عرقها الممتزج برائحة المرق وقالت: «أنا ظرُّوف لا أعرف كلّ شيء، أعرف أطبخ وآكل وأرقص و. . .» وأشارت بيديها في حركة بذيئة. لما بدأ الزغب الخفيف يعلو شاربي رأيت كثيرًا من هذه الحركات من رجال ونساء على حدّ سواء. سرقتُ بندقيّة أبي وذهبت مع سنجر ومرهون لصيد العقعق. قال سنجر: «إن لم تحضر البندقيّة لست رجلاً»، وقال مرهون: «سنشويك أنت بدلاً من العقعق». في الصحراء ثبّتاني وحاولا إجباري على القول: «أنا العبد عبد الله عبد سنجر ومرهون»، لكنّي لم أقل. قلت لهما: سأخبر ظريفة بكلّ شيء» فتركاني. ولكنّهما أكلا العقعق لوحدهما. حلفت أنّي حين سأكبر سآكل مائة عقعق لوحدي لكنّ القانون حرّم صيده بعدما كبرت. لم تزرع ميا أيّ ريحان. اهتمّت بزراعة الورد البلدي والفلّ والياسمين «ياسمين رازقي» والسوسن والخضروات وأشجار السفرجل والليمون. الحوش واسع فقامت باستغلال أكثره في الزراعة. اهتمّت بزراعتها وتركت الخياطة. سألتها مرّة: «لماذا لا تخيطين يا ميا» فقالت: «يا رجل. . أيش أخيط والخيّاطين في كلّ مكان. . وبصراحة ملّيت». ملّت الدراسة كذلك. فقدت الأمل في

إجادة الإنجليزيّة وتركت المدرسة المسائيّة. حين اقترحت عليها أن نُدخل محمّدًا مدرسة الأمل لذوي الاحتياجات الخاصّة بكت طويلاً وقالت: «ابني مثل كلّ الأولاد وسيدخل مدرسة مثل مدارس إخوته وأبناء خالاته». لم يكن محمّد مثل كلّ الأولاد، لكنّها لم تكن تريد أن ترى ذلك. لم تزرع ريحانًا. سألتها في ليلة صافية عن رأيها بزراعة الريحان فقالت إنّ رائحته تجلب الأفاعي. في ليلة صيد العقعق كانت ظريفة تضمّد جراحي البليغة بالملح والكركم وكنت أهذي بسؤال وحيد: «كيف ماتت يا ظريفة؟ كيف ماتت أمّي؟» وظريفة التي لم تنطق طوال الليل قالت أخيرًا: «يا ولدي يا عبد الله يقول المتوصّف: آفتي معرفتي راحتي ما أعرف شيء». لمّا بدأت خولة تقود سيّارتها الخاصّة أصرّت ميا على تعلّم القيادة، وفشلت في حيازة الرخصة فأعلنت أنّ رجال الشرطة متحيّزون ضدّها ومتواطئون مع خولة الجميلة المتأنّقة. أحضرت لها سائقًا فطردته بعد أشهر. قلت لها: «يا ميا» قالت لي: «يا رجل». «يا رجل». «يا رجل». وبعد طلاق خولة وافتتاحها صالون تجميل في أرقى الأحياء في مسقط، حاولت ميا حيازة رخصة القيادة مرّة أخرى. لم أستمع لابن عمّي ولم أشتر عمارة. اشتريت أسهمًا فانهارت البورصة. حدث تلاعب كبير لكنّ الصحافة سكتت. سكتت حتى عن اغتصاب حنان وزميلاتها المدرّسات في الجنوب. وسكت الأهالي. من اشترى هذا السكوت الباهظ؟ جُنّ جنون لندن ولازمت صديقتها المنهارة نفسيًّا في المستشفى. لازمت أنا أبي في المستشفى. أبلّل شفتيه اليابستين بقطرات من الماء وأغمض عينيه

المفتوحتين. وأبكي. لم أذرف دمعة واحدة أمام الناس في العزاء. ظللت بدشداشتي البيضاء المكويّة والخنجر والمصر[١] من الصباح حتى المغرب ثلاثة أيّام أصافح المعزّين وأردّد: «البقاء لله». أكلوا الأرزّ واللحم وذهبوا. في المساء أغلق على نفسي باب غرفته. يحرقني شيء لا أعرفه. يحرقني بقوّة. في المستشفى وهو في غيبوبته، أزحت المصر عن أعلى جبهتي وقرّبت جرحي الغائر من عينيه المفتوحتين. كشفت كتفي حيث ثوت آثار السكاكين المحميّة وحبال الليف وهمست له: «هل تذكر يوم العقعق؟». لم يتحرّك. اليد التي ربطتني بحبال الليف ونكّستني في البئر، يرتطم رأسي وجسدي بحوافّ جدرانها الحجريّة، لم تتحرّك. همست في أذنه: «سنجر أصغر منّي كما قلت ولكنّه تحدّاني أن أسرق البندقيّة. كنت سأرجعها لمكانها لو لم يشِ مرهون بي». لم يتحرّك فارتفع صوتي: «هرب سنجر ولم تضرب مرهون وكدت أموت رعبًا وأنا منكّس في ظلام البئر، مربوط بحبل ليف لا أدري متى ينفكّ». اليد التي فعلت ذلك لم تتحرّك. ظلّت ملتصقة بأنابيب التغذية وساكنة. أمسكتها ومرّرتها على آثار جروحي. ضغطتها بقوّة وانخرطت في بكاء يائس.

(١) المصر: العمامة العمانيّة المزخرفة بألوان مختلفة.

دخلت أسماء غرفة البنات القصيّة المرميّة في الحوش كأنّها جزء ناتئ منه، بعدما كبرت ميا وأخواتها ارتأت أمّهنّ أن تعزلهنّ عن جسم البيت الأساسي حتى لا يصادفن أقارب العائلة من الذكور في الدهليز حين يأتون لواجب صلة الرحم، فطلبت من زوجها أن يبني لهنّ هذه الغرفة في الحوش، كانت خولة كالعادة متربّعة أمام مرآتها، وفي يدها شيء غريب، قرفصت أسماء بجانبها: «ما هذا يا خولة؟» قالت خولة همسًا: «أحمر شفاه». شهقت أسماء وأخذته من يدها لتتأمّله: أحمر فاقع بغطاء كبير على شكل طائر ذهبي، «من وين جبت هذا الشيء؟» انتزعته خولة من يدها: «طلبت من ميا أن تشتريه لي من مسقط قبل أن تلد». حدّقت أسماء في الطائر الذهبي المزخرف، وتمتمت: «لكن أمّي..». نظرت خولة في عينيها: «أمّي لن تعرف، إلاّ إذا..». أومأت أسماء برأسها لتطمئنها ثم تركتها، متّجهة للرفّ الذي نقلت إليه الكتب التي سَلِمت من الرطوبة والعثّة في المخزن، أخذت تقلّبها حتى عثرت على الكتاب الأزرق، قرأت العنوان بصوت مرتفع: «مسند الإمام الربيع بن حبيب». بعد صفحة الغلاف المتآكلة قرأت الكتابة المتعرّجة بخطّ اليد: «لمالكه الفقير لرحمة ربّه

مسعود بن حمد بن محمّد انتقل لملكي هديّة من الصديق والأخ علي بن سالم بن محمّد وأنا أكتب بيدي الفانية على هذا القرطاس».
أسماء لا تحبّ الكتابة المتعرّجة، تتذكّر دائمًا اليوم الذي افتُتحت فيه المدرسة في العوافي قبل بضع سنين، لم يُسمح للبنات الأكبر من عشر سنوات بالدخول إلاّ في فصول محو الأمّيّة التي افتُتحت لاحقًا. سمعت أسماء أنّ بعض من كتبوا أسماءهم بنجاح سمحوا لهم بدخول الصفّ الثالث مهما كان عمرهم لكنّها لم تعرف كيف، فهي لم تحضر أوّل يوم... سُجّلت في فصول محو الأمّيّة، لم تكد تصل للإعدادي حتى أقفلوا الفصول لقلّة العدد، كتبت المعلّمة بخطّها المتعرّج على السبّورة السوداء: «ستُقفل الفصول لقلّة العدد»، خرجت أسماء من المدرسة وكرهت الخطّ المتعرّج من يومها.

قالت خولة: «بدل أن تحافظي على جمال عينيك أعميها بالقراءة».

تمتمت أسماء: «اسكتي يا جاهلة، منذ أن خرجت من المدرسة قبل سنتين وأنت لم تفتحي كتابًا حتى المصحف لولا سوط أمّي في رمضان ما كنت فتحتِه».

هزّت خولة كتفيها باستخفاف والتفتت لمرآتها. قلّبت أسماء الصفحات ثم ابتسمت فجأة وقرأت بصوت عال: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد فقال: «يا عائشة ناوليني الثوب»، فقالت: إنّي حائض، فقال: «إنّ حيضتك ليست في يدك»، صاحت أسماء: «كنت متأكّدة.. متأكّدة.. لكن

حرمة المؤذّن..».. أخذت تردّد الحديث حتى حفظته، قرّرت أن تخبر أمّها وميا عن الحديث، تخيّلت موقف زوجة المؤذّن حين تراهنّ يأكلن معًا فضحكت، أعادت الكتاب إلى مكانه مع الكتب الأخرى: كتاب فاكهة ابن السبيل بغلاف ورقي عادي، كتاب المستطرف مجلّد بمخمل أحمر ومطبوع بالمطبعة المحموديّة في القاهرة، ديوان عنترة بغلاف جلدي وكُتبت عليه تعليقات بخطّ اليد، كتاب قصص الأنبياء بورق أصفر متآكل مطبوع في كلكتا بالهند، ومجلّد كبير بورق أصفر، وعلى صفحته الأولى: «الجزء الثاني من العقد الفريد للإمام الفاضل الوحيد شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربّه الأندلسي المالكي تغمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جنّاته آمين، وبهامشه زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق إبراهيم بن عليّ المعروف بالحصري القيرواني المالكي رحمه الله تعالى». يطلب منها أبوها أحيانًا أن تقرأ له من هذا المجلّد فتجد صعوبة في تتبّع الخطّ الدقيق للكتابة كما تضطرّ لبتر بعض العبارات التي تحتوي كلمات تخجل أسماء من قراءتها أمام أبيها، في رفّها أيضًا قصّة تودّد الجارية في حجم صغير ومنتزعة منها بعض الأوراق، بعد سنوات طويلة ستتذكّر أسماء من هذه القصّة شيئين: منظر الأوراق المنتزعة منها وتشبيه عنق تودّد الجارية بإبريق الفضّة. هناك أيضًا ذلك الكتاب الأزرق المعنون بكليلة ودمنة، لبيدبا الفيلسوف الهندي، تعريب عبد الله بن المقفّع، طوله لا يزيد عن شبر ويشبه دفترًا صغيرًا من الدفاتر المدرسيّة، طُبع بمطبعة مكتبة صادر في بيروت عام ١٩٢٧، تحبّ أسماء أن تقرأ منه هذا المقطع

لخولة، للجرْس الموسيقي الذي يشعّه تتابع الهاءات الممدودة فيه: «قال الغراب: زعموا أنّ أرضًا من أراضي الفيلة تتابعت عليها السنون وأجدبت وقلّ ماؤها وغارت عيونها وأودى نبتها ويبس شجرها فأصاب الفيلة عطش شديد...»، كذلك توجد بعض كتب وزارة التراث، تبدأ أسماء بقراءة أبواب الطهارات فيها ثم تتعب من إكمالها، فهناك أشياء معيّنة لا تستطيع التفكير في حلول لها، من قَبيل وجوب قضاء الحاجة في مكان ليّن غير صلب حتى لا يرتدّ رذاذ البول ويصيب المرء بالنجاسة، بينما كلّ الحمّامات صلبة. وأيضًا يقلقها موضوع الاستجمار بالحصى، ومثل هذه التفاصيل التي لا تتغيّر في الكتب بتغيّر تواريخ التأليف والطبعات. ألقت أسماء نظرة خاطفة على الكُتيّبات الإنجليزيّة التي كانت ميا قد اشترتها من مكتبة العائلة في مسقط قبل أن تتزوّج، لا أحد يستطيع قراءتها لكنّ ميا دأبت على تصفّحها. قبل أن تترك أسماء رفّ الكتب قلّبت كعادتها الوريقات القليلة التي بقيت من كتاب لا تعرف اسمه لكنّها آثرت إبعاده عن كتب المخزن الأخرى التالفة. قرأت منه النصّ الذي حفظته رغمَ أنّها لم تفهمه تمامًا: «وزعم بعض المتفلسفين أنّ الله جلّ ثناؤه خلق كلّ روح مدوّرة الشكل على هيئة الكرة، ثم قطعها أيضًا فجعل في كلّ جسد نصفًا، وكلّ جسد لقي الجسد الذي فيه النصف الذي قُطع من النصف الذي معه كان بينهما عشق للمناسبة القديمة، وتتفاوت أحوال الناس في ذلك على حسب رقّة طبائعهم».

في تلك الليلة حين كان عزان زوج سالمة راجعًا من السهرة عند البدو تملّكه إحساس بالنشوة، كانت الرمال تحت قدميه ناعمة جدًّا وقد خلع نعليه ليستمتع ببرودتها الهادئة، آنسه اكتمال القمر وهو يطبع ظلالاً أليفة على الكثبان الرمليّة. من بعيد لاحت له أنوار «العوافي» وكأنّها عالم لا يعرفه، لقد أمضى مع أصدقائه من البدو شطرًا من الليل في الأحاديث والسمر، أنشد بعضهم وضحكوا، عزفوا على الناي والربابة، وقد قرّر عزان أن يعود إلى العوافي مشيًا تاركًا سيّارات أصدقائه ذات الدفع الرباعي. لم تكن بيوت البدو المتناثرة تحت عرق الرمل الكبير تبعد كثيرًا عن العوافي، لكنّ البلدتين لم تتماسّا قطّ، ظلّت العوافي متمسّكة بثباتها وطابعها الزراعي، وظلّ البدو ـ على الرّغم من استقرارهم الظاهري واستبدالهم بيوت الإسمنت بخيام الشعر ـ يحتقرون فكرة الثبات وغرس الجذور، ويعتمدون أساسًا على رعي الجمال والغنم، لقد ظلّوا محتفظين بزيّهم التقليدي وطباعهم الحرّة، وبالحدود الصارمة التي تفصلهم عن «الحضر».

لم يعد عزان يشعر بالانقباض في جلسات السمر هذه، ولم

تعد تلك السحابة الثقيلة تحطّ على قلبه كلّما انخرط معهم لتمثّل له أنّ كلّ أحاديثهم وضحكهم مجرّد لهو دنيوي. لم تعد ذكرى ولديه الميتين تنشب في حلقه كالغصّة وسط الغناء، ولم يعد يحسّ أنّه مثقل بالدنيا ويريد أن يتلاشى عن زيفها، لم يعد الإحساس بالفرح إحساسًا مذنبًا في أعماقه ولا المتعة سرابًا ينبغي عدم الوقوع في شركه. كان يستعيد بعض مقاطع المنشدين ويحاول ضبط إيقاع قدميه على إيقاع النغمة في رأسه. تراءى له وجه حفيدته الجديدة، لقد أصبح جدًّا وهو في منتصف الأربعين، أحسّ فجأة باللهفة للوصول إلى بيته والدخول إلى الغرفة الوسطى ليرى وجهها الصغير النائم. كان يبتسم لنفسه ويكاد يدندن طربًا حين باغته ظلّ بشري بين الكثبان، بسمل عزان وتراجع خطوتين للوراء لكنّ الظلّ تقدّم نحوه بثقة، صاح عزان: «من هناك؟» ففاجأه صوت أنثوي: «أنا». بعد هنيهة كانت امرأة فارعة الطول قد وقفت قبالته ونزعت برقعها عن وجهها. هدأ روعه وسألها: «من أنت؟ وماذا تريدين؟». نظرت المرأة مباشرة في عينيه، أربكه جمالها المصمّم وبريق عينيها الواسعتين، أربكته رائحتها الفاغمة وقربها المبرح منه، لكن كلامها أفقده السيطرة: «أنا نجيّة وألقّب بالقمر وأريدك أنت». ستظلّ عبارتها تطنّ في رأسه أعوامًا كثيرة بعد ذلك: «أنا نجيّة وألقّب بالقمر وأريدك أنت». لم يعرف عزان نساء كثيرات في حياته ولم يعرف بكلّ تأكيد امرأة على هذا القدر من الجرأة، تُلقّب بالقمر. إنّها تستحقّ لقبًا أعظم، إنّها أجمل من أيّ شيء رآه أو سيراه في حياته. لقد لاحت له تحت ضوء القمر كأنّها من الحور العين التي

بشّر الله بها عباده المؤمنين. مالت عليه فتأبّط نعليه وهرب، ركض بأقصى سرعته باتّجاه العوافي عاجزًا عن التفكير في أيّ شيء.

لم تعد نجيّة لبيتها وإنّما ذهبت لبيت صديقتها، وقفت عند الباب الخشبي وصاحت: «يا خزينة.. يا خزينة»، فخرجت خزينة تسوّي برقعها على وجهها: «خير يا القمر؟» قالت: «تعالي، ستبيتين معي الليلة». سارت معها خزينة طويلاً حتى لاح بيتها: «أخي راقد في عرق الرمل الشرقي وأنا وأنت سنبيت بالداخل»، حين أقعتا متقابلتين قالت خزينة: «إيش صار؟» ردّت صديقتها بهدوء: «هرب». ضحكت خزينة حتى انبطحت أرضًا: «حاشا لله هذا ما رجل!!..هرب؟ هاهاها!!.. هرب منك يا القمر؟..» لكنّ نجيّة لم تضحك. انتظرت حتى فرغت صديقتها من الضحك ثم قالت: «أريده وسأحصل عليه». مسحت خزينة دمعها الطافر بطرف ردائها وأضافت مزيداً من الخشب للنار المتّقدة بجانبهما، ثم قالت: «يا القمر هذا الرجل باين عليه ما نافع للنسوان». تمدّدت نجيّة وقالت: «لكنّي أريده وسيأتيني، القمر لا تريد شيئًا ولا تحصل عليه». هزّت خزينة رأسها: «يا أختي هذا الرجل متزوّج بنت الشيخ مسعود، شيخ قبيلتهم كلّها.. تظنّين أنّه سيتركها ليتزوّجك أنت؟». ضحكت نجيّة، ضحكت ضحكتها المجلجلة الشهيرة، قالت خزينة لنفسها وهي ترى أسنانها اللؤلؤيّة: «ما أجدرها بلقب القمر.. كاد الناس أن ينسوا أنّ اسمها نجيّة»، وضعت نجيّة يديها خلف رأسها وقالت لصديقتها: «من قال لك إنّي أريد أن أتزوّجه؟ القمر لا تؤمّر أحدًا عليها.. أنا لم أُخلق لأخدم

رجلاً وأطيعه.. يسرق حلالي ويمنع عنّي أخي وصاحباتي... يوم يقول لا تطلعي، ويوم يقول لا تلبسي، ويوم يقول تعالي ويوم يقول روحي.. لا.. لا.. لا يا خزينة عزان سيكون لي ولن أكون له... سيأتيني حين أشاء ويذهب حين أشاء... منذ رأيته في الرمسة مع الرجال وأنا أعرف أنّ هذا الرجل سيكون للقمر.. وهرب؟.. هرب!! ركض كأنّي جنّيّ فاجأه وهرب!.. يرفضني أنا؟ القمر؟ لم يخلق الرجل الذي يرفضني بعد يا خزينة.. سيأتيني عزان هذا جاثيًا على ركبتيه». سكتت الصديقتان طويلاً ترقبان النار التي خمدت شيئًا فشيئًا ثم نامتا.

حين كبرت نجيّة كان بيتها هذا ـ المكوّن من غرفتين مفتوحتين على صالة مطلّة على الحوش بجدار واطئ لا يصل للسقف ـ مجرّد خيمة واسعة، وكان أبوها متلافًا للمال. لم تر أمّها منذ خلقت ولم تشغل نفسها بالسؤال عنها. أحبّت شيئًا واحدًا فقط في العالم: أخاها الأصغر، كلّ آثار الجروح في جسدها ناجمة عن المعارك التي خاضتها مع الصبيان دفاعًا عنه، كانت تهرع من المدرسة الابتدائيّة إليه لتسأله عمّن آذاه، تحشو مريولها المدرسي الأصفر داخل البنطال الواسع وتنطلق إلى معاركها اليوميّة، وحين توقّف الصبيان عن ضرب أخيها أو مناداته بالمخبول كانت قد وصلت إلى المرحلة الإعداديّة، وفي الإعدادي عرفت أنّها لم تُخلق لتجلس في صفّ رطب مع خمسين طالبة تسمع كلامًا غريبًا عن النحو والأرقام والعلوم من الفجر إلى العصر، لم تحبّ أحذية المدرسة البيضاء التي يتحوّل بلاستيكها إلى اللون الأسود بعد أسبوع على الأكثر،

ولا زيّ الإعدادي الرمادي الخالي من أيّ زخرفة، المتجعلك باستمرار بسبب الزحام والحرّ، ضايقتها لهجة المدرّسات المصريّات والسودانيّات الغريبة، ولم تستوعب فكرة الجلوس في مكان واحد طوال اليوم، تركت المدرسة وتخلّصت من الركوب منحشرة في سيّارة بيك آب مع عشر بدويّات أخريات تترجرج أجسادهنّ الصغيرة وتصطفق من الريح المحمّلة بالرمل ساعة أو أكثر حتى يصلن إلى المدرسة.

استغرق أبوها في جلسات الشواء والشراب والزار، فأمسكت ماله ورعت غنمه وإبله حتى تضاعف في سنوات قليلة، أطعمت النوق الأصيلة تمر الخلاص والسمن البلدي وعسل النحل، وشاركت بها في سباقات الهجن حتى نجحت في بيع إحداها لأحد شيوخ أبو ظبي بعشرين ألف ريال، استخرجت للناقة جواز سفر أسمتها فيه «غزيلة»، وشحنتها إلى أبو ظبي، وحين قبضت ثمنها استبدلت بالخيمة بيتًا من الإسمنت المسلّح اشترت له السجاجيد والمناديس من سوق مطرح: سخرت علنًا من جيرانها الذين بنوا بيتًا بطابقين وظلّوا يقضون حاجتهم تحت شجيرات السمر الصحراويّة خارج البيت الجديد المزوّد بخمسة حمّامات. لم تستسلم لتبطّل أخيها المنغولي فدرّبته على رعي الغنم والإبل، حين مات أبوها تنفّست الصعداء وأحكمت سيطرتها على حياتها ومالها وحرّيّتها، ولمّا تفتّحت أنوثتها ووصل خبر عبيرها القاصي والداني لقّبها الناس بالقمر، استهزأت بخطّابها الكثيرين وتفرّغت لأخيها وثروتها، قالت لنفسها إنّها حين سترى رجلها ستعرفه وستأخذه،

اصطفّت الصديقات وتاجرت بمشغولاتها اليدويّة المميّزة، أصبح بيتها قبلة للضيوف والمحتاجين، وهابها الرجال والنساء.

حين أُصيب أخوها بكساح مفاجئ أغلقت بيتها وأقامت معه شهورًا في مستشفيات الحكومة البعيدة، معتمدة على صديقاتها في رعاية غنمها وإبلها. طُرِدتْ مرارًا من أقسام الرجال في المستشفيات فلفّت بطّانيّتها عليها ونامت في الممرّات، قال لها الأطبّاء تصريحًا وتلميحًا إنّه منغولي أصلاً وقد عجزت رجلاه الآن فماذا ترجين منه؟ دفعها الناس لانتظار خلاصه بالموت فاعتزلتهم، حين يئست من المستشفيات حملته للبيت وأغلقت عليهما الباب، داوته طويلاً بكلّ ما وصفه المجرّبون وما ابتكرته هي من خلطات الأعشاب، واظبت على دهن رجليه العاجزتين بزيت الزيتون الساخن ومسحوق القرنفل، وعلى محاولة إيقافه مستندًا عليها، ألقت بثقله على ظهرها القوي وجرجرت رجليه في الصالة ذهابًا وإيابًا، مزجت الحنظل مع عشبة «المخيسة» وسقته الشراب المرّ كلّ صباح، مسحت لعابه بكمّها ولم تسمح لنظرة العجز في عينيه الضيّقتين المستطيلتين بثنيها عن عزمها، صمّتْ أذنيها عمّن يستهزئ بمحاولاتها ونذرت حياتها لأخيها. حين فتحت نجيّة بنت سعيد باب بيتها ونحرت ناقتين للصدقة، كان أخوها يمشي على قدميه.

أيّتها المضيفة اللطيفة المصبوغة بعناية، ما شعورك وأنت تقضين كلّ حياتك معلّقة بين السماء والأرض؟ أنا كنت مثلك بين السماء والأرض حين رأيتها.

رأيتها في اليوم التالي بعد العيد الكبير. ذهب أبي ليسلّم على أمّها سالمة التي تمتُّ له بقرابة بعيدة كما جرت العادة كلّ عيد. لم أكن معه ولكنّي فهمت فيما بعد أنّه لمح خولة، أصغر بنات سالمة. في صباح اليوم التالي قال لي: «أريدك أن تذهب لبيت عزان لأنّي نسيت عصاي هناك بالأمس، وأنا أسلّم على أرحامي سلام العيد». أدركت أنّ أبي لا يمكن أن ينسى عصاه في أيّ مكان فهي مخلوقة في يده منذ خُلق، ولا يمكن أن يبعثني بدل أحد عبيده لمجرّد أن أحضر العصا ولكنّي كالعادة لم أناقشه. ذهبت لبيت عزان واستأذنت للدخول. اجتزت حوش البيت الواسع ودخلت الدهليز. يبدو أنّ ميا لم تفطن لدخولي. كانت جالسة في آخر الدهليز على كرسي خشبي تحاول إدخال خيط في إبرة ماكينة خياطة. كانت الماكينة سوداء ماركة الفراشة وكانت ميا منحنية عليها. شاحبة ورقيقة وغامضة. لمحت جانب وجهها فلامس عذابه عذابي. أنفها

القصير وعظام وجنتيها ووجهها يعلو ويهبط في محاولة إدخال الخيط. يكاد جسدها يتّكئ على الماكينة. كانت منحنية عليها. كان شحوبها يشعّ في ضوء النهار وعذاب وجهها الصغير لا يحتمل. قالت أمّها وهي تنظر في عينيّ الزائغتين: «حين أجد العصا سأرسلها». حاولت التركيز فيما ينبغي قوله فلم أجد الكلمات الملائمة. بدت لي سالمة امرأة مسيطرة. كان الناس يلقّبونها بـ «عروس الفلج»، بيضاء ميّالة للامتلاء، وجهها مدوّر ببشرة صافية، أنفها حادّ، وعيناها نافذتان. من المؤكّد أن ميا لا تشبهها. ألقيت على آخر الدهليز نظرة أخيرة فلم أصدّق كلّ الوجع الذي يبعثه حضور ميا. كانت هالات منيرة تحيط بهذا الوجود. كان بوسعي أن أمدّ يدي وألمس هذه الهالات الغريبة. لكن أمّها سالمة نطقت بكلمات تلمّح أنّ أوان عودتي قد حان، فعدت.

خرجت من بيت عزان وأنا لا أفهم ما الذي حدث، وما الذي يُتوقّع أن يحدث في المستقبل. قبلها بسنوات قليلة كنت قد بدأت أتلقّى التلميحات حول هروبي من البنات. لم أكن أهرب في الحقيقة. كنت لا أشعر بالمشاركة. لم تكن نكات الخادمات المكشوفة وأياديهنّ العابثة أحيانًا تشعرني بأنّي محبوب ولم أشعر بأنّهنّ محبوبات. لاحقتني شنّة خلف أشجار الليمون في المزرعة وأنا لم أكمل الأربعة عشر، ارتمت عليّ بدون مقدّمات فشعرت بالغثيان ودفعتها عنّي، ملطّخةً بالطين أقسمتْ إنّني سأدفع الثمن غاليًا، ولم تمضِ أيّام حتى كانت ظريفة تحاول دفعي للزنى بأيّ من بنات العبدات في بيت أبي، كانت المحاولات فجّة ومجرّدة تمامًا

من أيّ عاطفة، ومعظم البنات كنّ خائفات أو طامعات في الهدايا، فازددت انسحابًا وانطواء على نفسي. طار صواب ظريفة وقد رأتني ـ وحالتي هذه ـ هدفًا مناسبًا لشذوذ الكبار من الصبية والرجال فعملت على حمايتي بكلّ وسائلها الخرقاء التي جرحت مراهقتي بجرحها النافذ، حين رأيت ميا كنت قد فرغت من كلّ ذلك. كنت في التاسعة عشرة ولكنّي لم أفهم ما الذي أصابني على وجه الدقّة.

ظريفة فهمت. في فجر أحد الأيّام كنت مفعمًا بالسعادة والألم. وجه ميا الشاحب غيّبني تمامًا عن الوجود وملأني كما لم يملأني شيء من قبل في هذا العالم. أخذت أتمشّى في بيتنا الكبير الذي يضمّ صالات متجاورة بُنيت في فترات متلاحقة وغرف متّسعة منفتحة عليها. شعرت بأنّ المكان لا يتّسع لي، وأنّي أحمل شيئًا ثقيلاً وثمينًا وأنّي سأطير في الوقت نفسه من فرط خفّتي. في الليلة الفائتة ـ بعدما تأكّدت من نوم أبي ـ تسلّلت إلى الحيّ الشرقي تحت السدرة الضخمة وغرقت في أنّات عود سويد وشلّته... كلّما قلت له: «بالله يا سويد كيف حصلت على هذا العود؟»، يضحك ويقول: «مثلما يحصل الإنسان على أولاده يا الشيخ.. رزق من الله!».. هكذا حصلت أنا أيضًا على النور الذي بدّد عتمة أيّامي، النور الحنون القاسي.. هل يسمّونه الحبّ؟ رزق من الله! خرجت من صالات بيتنا المزخرفة وتنفّست الفجر الأزرق، سرت في الحوش الشرقي الذي ينتهي بصفّ من أشجار الليمون والمانجا وشجيرة ورد بلدي وحيدة. وددت أن أغنّي كما غنّى سويد بالأمس فلم أستطع ضبط إيقاعات صوتي، استسلمت لروائح الليمون

والورد. في مكان ما هنا كانت شجرة الريحان التي اقتلعتها أمّي فقتلتها وها أنا أكاد أشمّها. . هل كانت أمّي ستحبّ ميا؟ أم كانت ستقول كما قال أبي فيما بعد: «ظننت أنّ اسمها خولة؟» قلت له: «لا يا أبي خولة أختها الصغرى. . ميا الكبرى»، امتعض: «الكبرى؟ تلك الضئيلة السمراء؟ ألم تر خولة؟. . أليس لك عينان لتفرّق بين الجميل وغيره؟ ثم هذه الميا أكبر منك لأنّ عزان أبوها جاء بها يوم عيد تسير على قدميها وأمّك حامل بك». تحشرج صوتي: «بسنة وثمانية شهور فقط يا أبي». . . لوَّح بعصاه التي لم ينسها قطّ في بيت عزان، وكتبت له بعد أيّام رسالة ابتدأتها كما جرت العادة بعد البسملة بقولي: «إلى سيّدي ووالدي العزيز الأجلّ الأكرم»، وختمتها بتوقيعي: «خادمك وابنك المنتظر عطفك: عبد الله». نسيت متن الرسالة الآن، ربّما توسّطت عمّتي في الموضوع، ومن المؤكّد أنّ ظريفة صارحته بخجلي غير المبرّر في نظرها وشكوكها تجاهي، دعاني بعد أيّام ليخبرني أنّه سيخطب لي ميا وأنّه سيدفع لها مهرًا ألفي ريال وسيبني صالة جديدة من ناحية الحوش الشرقي تنفتح على غرفتين وحمّام حديث لأعيش في هذا الملحق مع عروسي.

في ذلك الفجر مشيت حافيًا على الحصى دون أن أعرف أنّ القسم الأكبر من هذا الحوش سيتلاشى ويحلّ مكانه بيت الزوجيّة، سرت بمحاذاة الأشجار ثم انحرفت عبر الممرّ الضيّق إلى الحوش الغربي الذي يغطّيه الرمل بدل الحصى الناعم ويبدو أقلّ اتّساعًا من نظيره الشرقي، لم أرَ في العوافي كلّها بيتًا له حوشان يحيطان به من

جهتين غير بيتنا، هل لذلك أسماه الناس بالبيت الكبير؟ البيت الكبير أعيش فيه مع أبي، تزورنا عمّتي أحيانًا، ويعيش معنا في أحد ملحقاته العديدة ظريفة وسنجر وحبيب قبل هربه، وخارج البيت غير بعيد عنه يعيش في بيوت صغيرة سويد وأخوه زعتر، وزيد ـ قبل وفاته غرقًا في السيل ـ وزوجته مسعودة وابنتهما شنّة، وحفيظة وأمّها سعادة وبناتها الثلاث مجهولات النسب. وكلّ هؤلاء عبيد أو معتوقو أبي بالوراثة. لكنّ البيت الكبير لم يكن خاليًا. كان ضيوف من شتّى الأعمار والأنساب يعمرونه باستمرار ولذا كان منظر حزمة الأخشاب هذه في جانب الحوش الغربي ومراجل الطبخ السوداء الضخمة مألوفًا للغاية. كانت ظريفة وحفيظة نادرًا ما تطبخان في مطبخ البيت الداخلي الصغير، فالولائم الدائمة تستلزم استخدام المراجل التي لا يتّسع لها ذلك المطبخ، كما أنّ الذبائح ـ التي يتولاّها في العادة سويد وزعتر ـ تُعلّق وتُسلخ دائمًا في الحوش الغربي لتُطهى مباشرة فوق النار المشتعلة، ظريفة تقسم إنّه لا مجال للمقارنة بين اللحم المطبوخ بـ «نار وارية» وبين اللحم الناضج في الطبّاخات: «لحم الغاز» كما تسمّيه... نعم ذلك الفجر كنت ممتلئًا وخفيفًا، حتى هباب الطبخ على جدار المطبخ البرّاني المسقوف بالأعمدة الخشبيّة لم أره شيئًا قبيحًا، كلّ شيء جميل: الرمل والمراجل ورائحة خبز الرقاق تتصاعد من داخل المطبخ في زاوية الحوش، دخلت إليه ـ كان بلا باب ليتّسع للمراجل ـ ووجدت ظريفة مقعية على علبتي حليب نيدو يفيض جسمها عنهما منحنية على الطوبج الحارّ ترقّ عليه العجين وتسحبه

بعد ثوانٍ بمهارة فائقة. قالت دون أن تلتفت: «صباح الخير يا ولدي عبد الله.. ولا أقول يا حبابي؟.. تراك أصبحت رجلاً كبيرًا».. عرفت ظريفة. سكتّ أنا.. هل رأت اسم ميا على جذوع الأشجار وأوراق الدفاتر؟ لكنّ ظريفة لا تستطيع القراءة! «كيف عرفت يا ظريفة»، انفجرت في الضحك ذلك الفجر: «يا ولدي يقول المتوصّف: الشمس ما تغطّيها كفّ».

وتزوّجت أيّتها المضيفة اللطيفة المتأنّقة، ابتسامتك المفتعلة تجعلني أشعر بالشفقة عليك. أنا أكره الابتسامات المفتعلة كما أكره الضحك، وميا ـ زوجتي أيّتها المضيفة اللطيفة ـ لم تضحك ولم تبتسم في يوم العرس.

قُبيل الفجر كانت ميا جالسة في فراشها، في حجرها الرضيعة التي توقّفت أخيرًا عن الصياح ونامت، أسندت رأسها المتعب إلى الجدار، وأحسّت بأنّ الصبغ الأزرق الزيتي غامق ومشعّ فيؤذي عينيها، أغمضتهما فرأت جناح الولادة بمستشفى السعادة، الملح والزيت الموضوع على سرّة الرضيعة، زوجة عمّ عبد الله في وادي عدي، النساء الزائرات كلّ صباح وعصر ومساء، مرق الدجاج الطازج، بصاق ظريفة وهي تنفث في وجه الرضيعة وتتمتم بالأدعية، خاتمها الفضّي الضخم، الأقمطة البيضاء، لسان الرضيعة الصغير الأحمر وأظافرها التي مُنعت من قصّها كيلا تصبح لصّة في المستقبل. فتحت ميا عينيها وتأمّلت ابنتها، جسمها ضئيل جدًّا وصراخها حادّ، مرّرت يدها على شعرها الخفيف الأسود ولم تتمالك نفسها من التعجّب: «أهذه هي الأمومة؟!!»، أسماء تسألها كلّ يوم: «كيف هو شعور الأمومة؟ أعظم شعور بالدنيا؟» وميا تسكت. كلّ ما تشعر به هو الإرهاق الشديد وآلام الظهر والبطن والحاجة الماسّة للاستحمام، أصبحت الحكّة في شعرها لا تُطاق وأمّها سمحت لها أخيرًا أن تستحمّ بسرعة لكن بدون أن يمسّ الماء

شعرها، فالبرد يتصيّد النفساء، وإذا أصابها فإنّ حمّى النفاس قاتلة، وأسماء تسأل عن الأمومة وما تسمّيه بحميميّة الرضاعة!! الرضاعة سهر وقتال مع الرضيعة لتفتح فمها وآلام في الظهر من الجلوس الطويل. لكن ميا لم تقل ذلك، تتسلّى بالاستماع لأختها وتصمت. ميا تعتبر الصمت أعظم شيء يمكن للإنسان عمله، حين تصمت تستمع بشكل جيّد للآخرين وحين تملّ من كلامهم تستمع لنفسها في الصمت، لا تقول شيئًا فلا يؤذيها شيء، في أحيان كثيرة ليس لديها ما تقوله، وفي أحيان أخرى تعرف أنّها لا تريد أن تقول وحسب. زوجة المؤذّن تبارك صمتها: «لسانك لن يشكو بك يوم القيامة»، حين ستكبر طفلتها ويأتي سالم ومحمد أيضًا ستكتشف شيئًا آخر: النوم. النوم: ستنام وتنام ولا شيء سيؤذيها في النوم، ستكتشف أنّ النوم معجزة أكثر من الصمت حيث لا تسمع حتى كلام الآخرين. لن تقول ولن يُقال لها شيء، ولن ترى حتى أحلامًا في نومها... حين تنام تصبح بلا مسؤوليّات. لا تشعر بشيء، تتخلّى عنها الأشياء التي تتشبّث بها في اليقظة: الحركة العصبيّة المتكرّرة ليدَيْ محمّد، أصوات القتل وصيحات الانتصار في الفيديوجيم، معطف لندن الأبيض يضمّ نحولها المتزايد، طرطشة ماء الحنفيّة على الأواني القذرة في المطبخ، تشويح الخادمة الإندونيسيّة بيدها، نظرات السائق المتلصّصة في مرآة السيّارة الأماميّة، محاورات عبد الله اللانهائيّة مع لندن وشجاره مع سالم. حين تنام تسقط في هوّة لذيذة، تأخذها تدريجيًا حيث لا شيء، أجمل ما في الأمر أنّها لا ترى أحلامًا في نومها، لا كوابيس، لا

صور، لا أصوات، لا شيء. غيبوبة لذيذة لا تواجه فيها أيّ شيء. النوم هو جنّتها الوحيدة، وسلاحها الأخير ضدّ قلق وجودها البالغ.

سمعت ميا صوت المؤذّن فاستراحت له في صمت الفجر وبدت لها الحياة منشطرة شطرين كالليل والنهار: ما نعيشه وما يعيش بداخلنا.

أغفت قليلاً ثم أفاقت على صوت أبيها يفتح الباب قادمًا من المسجد، قرفص بجانبها وأخذ البنت من حجرها: «ما شاء الله بنتك تشبهك يا ميا»، ابتسمت ميا، رأت بقايا ماء الوضوء عالقة بغرّته وفكّرت أنّه يضطرّ لقضاء أغلب الوقت خارج البيت حتى تنتهي من أربعين النفاس وتنقطع النساء عن بيتهم. يبدو فرحًا بالبنت وقال لميا من قبل إنّها بصغر حجمها وشعرها الخفيف تذكّره بأحمد حين وُلد. نور الفجر يضيء الغرفة شيئًا فشيئًا وميا وأبوها ينظران للرضيعة ولا يتكلّمان، تصيح الديكة ويتعالى هسيس شجرة النبق المطلّة على نافذة الغرفة، أعاد عزان البنت لفراشها وقال: «والله يا ميا تشبه أحمد، حين وُلِد كان صغيرًا جدًّا أكبر من الكفّ بقليل، قلنا لن يعيش وعاش. ولمّا ملأ عيوننا وفرحنا به راح». ميا تتذكّر كلّ شيء: كانت في العاشرة وأحمد الذي يصغرها بسنتين ينطلق في المزارع راكبًا حصانه (كرب نخلة يابس) وضفائره ترفرف في الهواء وحرز الفضّة على عنقه، يهربان معًا من مدرسة القرآن وتفشل في مجاراته بركوب الحصان لأنّ كرب النخلة يكاد يمزّق

دشداشتها ولا تستطيع ربطها على وسطها كما يربط أحمد دشداشته، ولا خلعها كما يفعل أحيانًا، يسرقان المانجو الأخضر من مزرعة التاجر سليمان ويرقطان الخلال الصغير من تحت النخل. وراح. هكذا فجأة، راح، ميا تتذكّر العزاء والدموع وحرز الفضّة. اهتمّت أمّها بحفظ ملابسه والحرز ولم يهتمّ أحد بحصانه. ظلّ ملقى أمام عيني ميا تحت جدار الحوش.

حين خرج أبوها من الغرفة بكت الرضيعة فحملتها ميا إلى صدرها، هل تشبهها فعلاً؟ بعد ثلاث وعشرين سنة حين ستكسر هاتفها النقّال وتضربها لن يكون بينهما أيّ شبه إلاّ في السمرة والنحافة، ستكون لندن أطول وأجمل وحكّاءة لدرجة الثرثرة، ستكون هذه الغرفة ملاذ جدّها في ستّينيّاته وقد تلاشى الأزرق الزيتي وحلّ محلّه صبغ مائي خفيف، واستندت على الجدار خزّانات خشبيّة عصريّة بدل المندوس المذهّب وأريكة مكسوّة بالمخمل مكان الطنافس، ديكورات الجبس الأبيض ستحتلّ خطّ التقاء السقف بالجدران، ولندن التي لا تشبه ميا لن تدخل الغرفة ولا البيت كلّه خوفًا من جدّتها. جدّتها التي ستأوي إلى غرفة أخرى بالبيت نقلت إليها مناديسها ووسائدها المزخرفة جنبًا إلى جنب مع السرير الخشبي الجديد وملحقاته وأقسمت إنّها ستذبح حفيدتها إن تزوّجت ابن البيدار.

هذه السحب كثيفة، تروقني فكرة العلوّ والتخلّص من الجاذبيّة، هكذا أراقب الغيوم من علٍ، وأتذكّر اندهاشي حين اكتشفت للمرّة الأولى أنّها ليست سميكة كفاية لتحتمل ثقلي، انفجر أستاذ ممدوح من الضحك: «لما حتكبر حتبقى إيه؟ تكبر وتطير وتجلس فوق الغيم؟ الغيم ده زي البخار يا عبيط.. هوا يعني.. هوا..».

بعد تخرّجها بشهر واحد قالت لي لندن: «أحبّ الغيم يا أبي، وأنا صغيرة كنت أحلم أنّ لي جناحين مثل البنت في الفوازير وأطير وأجلس فوق الغيم». لم أقل لها إنّ هذا كان حلمي كذلك، لم أجد الفرصة، كنّا في سيّارتها الجديدة، هي تقود وتتحدّث بلا توقّف، ثم قالت فجأة: «نروح شاطئ السيب؟» كانت التحديثات على شاطئ السيب قد اكتملت، الطريق الساحلي الجديد يمتدّ حوالى أربعة كيلومترات بأرصفة طويلة أنيقة لوقوف السيّارات، وأرصفة بالأنترلوك للمشاة، وأعمدة الإنارة التي تحاكي برج العرب بدبي، قبل التحسينات كنت آتي أحيانًا مع أبي أثناء محاولاته لعقد اتّفاقات مع الصيّادين لشراء بيوتهم المطلّة على البحر وتحويلها إلى مجمّع تجاري، كان مقتنعًا أنّ مجمّعات سابكو والأوكي سنتر

وحتى مجمّع الحارثي الذي افتُتح إبّان مرضه الأخير كلّها بعيدة بالنسبة لسكّان ولاية السيب، كنت أقول له: «لكنّ القوّة الشرائيّة يا أبي ضعيفة، نحن لسنا في دبي»، فيقول: «أنت لا تفهم شيئًا في التجارة، سنمهّد الطريق مع هؤلاء الصيّادين ثم سترى»، لكنّنا توقّفنا عن المجيء والحديث عن المشروع حين علمنا أنّ وزارة الإسكان منعت إنشاء أيّ مجمّعات تطلّ على الشاطئ. كنّا في سيّارته المرسيدس البيضاء، أنا أقود ولا نتكلّم أبدًا إلاّ إذا شاء أن يفتح بعض مواضيع تجارته ويتحسّر على إمكانيّة ضياعها من بعده ما دام خَلَفُهُ واحدًا من أمثالي «ما يقدّر قيمة البيسة». بعد وفاته بأسبوع واحد قدّمت أوراق انتسابي لجامعة بيروت، أسافر لأداء الامتحانات حتى تخرّجت بكالوريوس إدارة أعمال، ولا يهمّني يا أبي أنّك لم تر شهادتي، فأنت لم ترغب قطّ أن تراها. ما الذي كان يرغب فيه؟ يقول: «أنت ولدي الوحيد.. أريدك تكون رجلاً.. أحسن رجل..»، وقضيت عشر سنوات بعد زواجي وأنا في الطريق: من مسقط إلى العوافي ومن العوافي إلى مسقط. رفض أن ننتقل تمامًا لمسقط، من سيعمّر البيت الكبير؟ من سيستقبل الضيوف؟ من سيقيم البرزة للرمسة كلّ مساء؟.. لا لا لا.. ننجز أعمالنا في مسقط.. يوم ويومين ونرجع العوافي.. العوافي بلدنا ما مسقط. بعد عشر سنين أخرى قال ولدي سالم: «مسقط بلدنا ما العوافي.. لماذا لا نقضي كلّ الإجازات والأعياد هنا؟..». لندن احتجّت على الطرق المصمّمة لأقدام السيّارات لا لأقدام البشر ثم انسجمت مع أرصفة الشواطئ الطويلة، قالت لسالم: «الموجود في

العوافي ولا يوجد في مسقط هو المقبرة، فمعظم سكّان مسقط لا يُدفنون فيها بل في بلدانهم الأصليّة». في تلك الليلة أوقفت سيّارتها في أحد المواقف الممتدّة على طول شاطئ السيب، أطفأت الأنوار وانفجرت في البكاء. لم أرها تبكي منذ أن كانت طفلة حتى العام الفائت حين انهالت عليها أمّها بالسوط وكسرت هاتفها النقّال، «يا ابنتي.. مالك؟.. مالك؟.. حنان؟.. ستُشفى يا ابنتي.. ستُشفى..» هزّت رأسها: «ليست حنان.. رفض أهلها أن يرفعوا قضيّة ضدّ الاغتصاب خوفًا من الفضيحة وهي استسلمت».. ضمّت عباءتها مزخرفة الأطراف إليها، انكبّت على المقود: «كنّا نأتي أنا وأحمد إلى هنا ويقول لي: «لا تلتفتي، لا تنزلي من السيّارة، الشباب يركضون بالشورتات هنا، لا تفتحي النافذة ولا تنظري».. وأنا أقول له: «يا أحمد أنت حبيبي أنا لا أرى غيرك».. يضحك يا أبي ويقول: «لماذا؟.. أنت عمياء؟..» يجتاحني الغضب ولا أعرف ماذا أفعل بكلّ هذا الغضب، غضبي لا يهدأ ولا يجد له منفذًا كلّما أتذكّر وجهها وهي تحكي يسدّ هذا الشعور كلّ مسالك تنفّسي، شعور واحد: الغضب. لم أشعر بالعجز تجاه الغضب كما أشعر وابنتي تبكي وتعترف: «كنت خاضعة لأنّي خائفة من الفشل». الغضب العاجز نفسه الذي شعرت به حين أزالت الممرّضة الأنابيب عن جسد أبي لتعلن وفاته، الغضب الذي جعلني أصرخ بلا صوت وأبكي بلا دموع. لكنّه غضب عاجز، كلّ ما يفعله هو منعي من التنفّس. لم أشعر بالغضب حين علمت متأخّرًا جدًّا بوفاة ظريفة. شعرت بأنّ الأرض قد مادت بي وأنّي ذلك الطفل اليتيم الذي

أجبره سنجر ومرهون على سرقة البندقيّة ثم حرماه من أكل العقعق. شعرت بأنّ أبي سيعاقبني على تركها تموت بعيدة ووحيدة بتنكيسي في البئر مربوطًا بحبال الليف. شعرت بضحكتها المدوّية تهزّ كياني في الفجر. سمعت همسها من جديد: «أمّك لم تمت يا ولدي يا عبد الله.. أمّك حيّة.. حرّاس شجرة الريحان أخذوها لكنّها حيّة..». فتحت كلّ نوافذ السيّارة الجديدة، استمعت لصوت الموج كأنّه سيغطّي على بكاء ابنتي وقلت لها: «لماذا لم تخبريني منذ البداية؟ لماذا صبرت سنة؟.. سنة كاملة؟..»، فتنهنه: «لم أستطع.. أنا اخترته.. كلّكم رفضتم وأنا أصررت.. ما أدراني؟.. كنت سعيدة في البداية، حاولت التجاهل.. لكن.. كيف سأعترف لأمّي أنّي كنت مخطئة؟.. ماذا أقول لكم؟..»، «انتظرت حتى يضربك لتنطقي؟». علا نحيبها، فتذكّرت نحيب أمّها: «يضربها؟ تقول يضربها؟ ولد البيدار يضرب بنتي أنا؟.. شيء رجل يضرب امرأته؟.. في العوافي كلّها ما سمعت عن أحد يضرب امرأته غير فريح السكران.. يرجع سكران يقيء فيها ويضربها.. وهذا الدكتور المتعلّم مثل فريح السكران؟.. يضربها؟.. يضرب بنتي ولد البيدار؟.. ما أحد مدّ يده عليّ ولا على أمّي ولا على أخواتي ويجيء هذا الكلب يضرب بنتي؟.. يا فضيحتنا بين القبايل.. يا فضيحتنا قدّام الناس.. زوج ابنتنا وفريح السكران من ثوب واحد.. والله ما يشوفها بعينه.. والله اليوم يطلّقها قبل باكر..»، وطلّقها، دفعنا له قيمة المهر وخلعت ابنتي نفسها وأصبحت حرّة. قلت لها: «أنت حرّة اليوم يا لندن.. أنت

طبيبة ناجحة واجتماعيّة وهو لا يستحقّ حتى أن تتذكّريه.. مجرّد تجربة سيّئة»، استنشقت هواء البحر وتركت دموعها تنساب على خدّها: «أنت على حقّ يا أبي.. مجرّد تجربة سيّئة»، الشباب يضحكون ويفتحون علب الكولا، هواء البحر يزداد برودة، قدت أنا السيّارة عائدين للخوير، وتمتمت في سرّي: «الحمد لله أنّ العرس لم يتمّ، وانتهت القضيّة في فترة العقد».

أعدّت ظريفة صينيّة كبيرة ملأتها بأصناف الأطعمة المعدّة لميا النفساء: صحن من الأرزّ والدجاج المطبوخ بالقرنفل والسمن، صحن من خبز الرقاق بالعسل، كمِّيّة من التفّاح والبرتقال والموز وملء مغرفة كبيرة من الحلوى، غطّت ظريفة الصينيّة ووضعتها على رأسها، خرجت من بيت سالمة، اجتازت قناة الفلج الرئيسيّة والبيوت وقلعة الشيخ سعيد والمدرسة ودكّان حمدان حتى أفضى بها الطريق إلى المزارع، فيما مضى كانت بيوت العوافي تخلو تمامًا كلّ نهارات الصيف حيث يذهب الجميع صغارًا وكبارًا إلى المزارع، هربًا من الحرّ، ويعودون مع الأنسام الطريّة في الليل، أمّا الآن في أوائل الثمانينيّات فلا حاجة لهذه الهجرة اليوميّة الجماعيّة، فالمراوح الكهربائيّة بل المكيّفات في بعض البيوت قد أغنت عن ذلك، «المكيّفات البدعة» كما تسمّيها ظريفة.

بدون أن تسند الصينيّة الثقيلة على رأسها بيدها واصلت ظريفة طريقها حتى أصبحت في الفضاء الأجرد بعد المزارع، انفتحت الصحراء أمامها وبلّلها العرق لكنّ دقائق قليلة لم تكد تنقضي حتى توقّفت وتنفّست الصعداء. أسفل الحصاة البيضاء الضخمة التي

تعرفها تمامًا، أنزلت ظريفة الصينيّة عن رأسها وجثت على ركبتيها، مسحت عرقها بطرف لحافها وقالت بصوتها الجهوري: «يا بقيعوه يا بقيعوه.. هذا أكللك ودعي لنا أكلنا، هذا نصيبك ودعي لنا نصيبنا، هذا من خراثة[١] ميا بنت سالمة، دعيها في حالها، ولا تضرّيها ولا تضرّي المولودة». انتصبت ظريفة واقفة وبدأت رحلة العودة للعوافي، هذا المشوار قامت به قبل يومين فقط من أجل أن تبعد الضرر أيضًا عن زوجة ابنها النفساء وحفيدتها، وقامت به أيضًا قبل ذلك مرّات ومرّات وكان النجاح حليفها دائمًا، ولم تغضب الجنِّيّة بقيعة لا في مدّة تخصّص ظريفة في خدمتها ولا في عهد أمّها من قبلها. تنهّدت ظريفة: «إلاّ في تلك المرّة حين سحروا أمّ عبد الله وهي في النفاس». من قبل ظريفة قامت أمّها بهذا الواجب ومن قبل أمّها قامت به جدّتها. وكلّهنّ يعرفن أدقّ الأسرار عن بقيعة الجنِّيّة التي تختصّ بافتراس كلّ نفساء لا تطعمها من طعامها. لكن مسكينة أمّ عبد الله تمتمت ظريفة: «الله يرحمها، كانت في حالها، ناقة الله وسقياها، لكنّ الناس ما ترحم، وهذا عبد الله طلع عليها لا في العير ولا في النفير، شيء رجل يخلّي امرأته تسمّي بنته هذا الاسم الغريب؟.. لكن كيف أتكلّم؟.. قال المتوصّف: «اللي ينقد يطيح المنقود فيه»[٢]، هذا ولدي سنجر بنته من سمّاها؟.. والله ما عاد للرجال شور، ما كلّ الرجال سليمان.. إيه والله.. ما

---

(١) الخراثة: النفاس وما يستتبعه من طعام خاصّ.
(٢) من ينتقد الناس يُصَبْ بمثل الشيء الذي انتقده فيهم.

كلّهم التاجر سليمان... ولا كلّهم الشيخ سعيد.. الله يرحمك يا أمّي... وينك؟.. تعالي شوفي الدنيا».

أمّ ظريفة يلقّبها الناس بـ «الخيزران» لطولها ورشاقتها، لكنّ اسمها الحقيقي هو «عنكبوتة»، كان أبوها قد ملَّ من ولادات زوجته المتكرّرة ومن انتقاء الأسماء التي ينبغي في كلّ مرّة ألاّ تقترب من أسماء الشيوخ والأسياد، فلم يخطر على باله اسم آخر غير عنكبوتة، وهكذا كان.

أصبحت عنكبوتة، قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، درسًا بليغًا لكلّ عبدة أو حتى حرّة تفكّر في رفض زوجها، إذ حبسها الشيخ سعيد في زنزانة قديمة في القلعة حين رفضت النوم مع عبده «نصيب» الذي زوّجها إيّاه. ظلّت عنكبوتة أشهرًا في الزنزانة يصل إليها طعامها كلّ نهار وزوجها نصيب كلّ ليلة، وحين ضجّ الناس من صراخها أُطلق سراحها خاصّة بعد أن أعلن نصيب أنّه تعب من ربط أطرافها كلّ مرّة في أعمدة السرير الحديدي الصدئ وحشو فمها بمصره لينال حقّه الزوجي. خرجت عنكبوتة من السجن حبلى بابنتها الوحيدة، وبعد أن ولدتها بنفسها وربطت سرّتها قرّرت أن تكون داية منافسة للداية مريّة المتخصّصة في توليد بنات الشيوخ.

لم يكن الناس في العوافي يعرفون أنّ وجهها الصلب شديد السمرة يخفي وراءه نهمًا عجيبًا للحياة، وإن عرفوا أنّ هذه المرأة الميّالة للصمت والتكتّم هي في الحقيقة «الماما» الكبيرة في حفلات الزار التي تُقام كلّ شهر في الصحراء خارج حدود العوافي وقلعتها ومزارعها.

شكرًا لك أيّتها المضيفة المتألّقة، كعكة البرتقال لذيذة جدًّا، وإن كنت أفضّل الحلوى العمانيّة على كلّ ما تنعتونه بالحلوى أو «السويت» كما تقول لندن. في المواسم، أو حين يمتلئ بيت أبي الكبير بالضيوف كنت ألفّ قطعة كبيرة من الحلوى في ورقة منتزعة من دفتري المدرسي وأحملها لأستاذ ممدوح، في كثير من الأحيان لم أكن أجد فرصة لأتذوّقها، في البرزة يأكل الرجال الكبار أوّلاً، ولا ينبغي لأمثالي من الصبيان أن يُظْهِروا النهم أو يزاحموا الكبار، كثيرًا ما تُرفع الحلوى قبل أن تصل يدي الصغيرة إليها، وحينئذ يتلاشى أملي تمامًا لأنّ عمّتي ستحكم الإغلاق عليها في المخزن، ولن أتجرّأ على طلبها. لكن ظريفة تتذكّر أستاذ ممدوح وتخطف لي قطعة كبيرة من أجله أو من أجل الشهادة التي تفرح بلونها الأخضر البهيج دون أن تفهم كلمة منها.

في بعض الأحيان أكون محظوظًا جدًّا فأحصل على قطعتين، ألفُّ الأولى لأستاذ ممدوح وأقتسم الثانية مع منين الذي يشمّ رائحة زعفرانها مهما بالغت في إخفائها. منين كان يقتعد حصاة ضخمة أمام باب منزله الطيني الذي يقع على طريقي للمدرسة، لا يمرّ

مخلوق من أمامه إلاّ وينادي: «منين مسكين، أعطوه لقمة عيش، أعطوه شطفة حلواه». سأنتقل من صفّ لآخر ومنين لا يغيّر مكانه كأنّما خُلق والحصاة معًا، ولا ثيابه الرثّة، غير أنّه سيكتشف شراب التوت «الفمتو» وسيغيّر نداءه: «منين مسكين، أعطوه لقمة عيش أعطوه شطفة حلواه أعطوه شربة فمتو». كان ولده زايد في صفّي لكنّي لم أره أبدًا مع أبيه، كان دائمًا في المدرسة أو يلعب مع الأولاد في الحارة، يقول الناس إنّ أمّه هربت مع رجل آخر وتركت زايد رضيعًا فأحسنت إليه الجارات حتى كبر وأصبح قادرًا على العناية بنفسه. كان زايد لا يضحك أبدًا ويغلب كلّ الأولاد في مسابقات الركض التي كنّا نقيمها من أوّل الفلج حتى آخر مزرعة في العوافي.

حين يراني منين سينغّم نداءه المعتاد ثم يصفّق قائلاً: «هيه يا عبد الله؟ كيف حال أبوك؟ أيش جبت اليوم لمنين المسكين؟» فإن كنت خالي الوفاض صرخت في وجهه: «أعرف أنّ وزارة الشؤون تعطيك ثلاثين ريالاً» وأركض باتّجاه المدرسة، وإن كانت حصّتي من الحلوى كبيرة سأجلس معه على حصاته ونأكل معًا، فيمتلئ فمه بالحلوى واللعاب والضحك، ويُعيد على مسامعي القصّة نفسها للمرّة الألف: «هيه يا عبّود، نعم الولد أنت، كريم مثل أبوك، هيه يا عبّود، في سنة الخرسة نزل المطر عشرة أيّام كاملة، بيتي هذا ذاب كلّه وحتى بيوت الهناقرة قطرت وانخشفت سقوفها، متنا جوع يا ولدي، كلّ التمر أفسده المطر وخرس، كلّ فراشنا وثيابنا مبلّلة وما أحد لاقي يأكل ولا شرا ولا بيع، هيه يا عبّود أنت جيت في

زمان النعمة والخير، ما شفت الجوع، سنة الخرسة سالت العوافي كلّها وديان، والشيخ سعيد أقفل على نفسه في القلعة وقال ما عندي شيء، كلّ تمري أفسده الماء وحرب القبائل أخذت كلّ اللي حيلتي، لكنْ أبوك نِعْم الرجل، فتح بيته ونصب الناس الخيام في حوشه، يأكلون ويشربون إلى أن فتح كلّ باب في المطبخ والمخزن وشاف الناس بعيونهم أنّه ما بقى شيء، لولا أبوك والشيخ مسعود الله يرحمه يا ولدي كنّا متنا جوع، سنة الخرسة يا عبّود... هيه واليوم معنا حلوى.. دنيا يا ولدي دنيا.. أقول عبّود: ما عندك شربة فمتو؟».

وكبرنا، لم يعد زايد يشدّ شعر البنات على غفلة ونحن نلعب الغمّيضة وننقسم، فريق البنات وفريق الأولاد. لم يعد يصرع سنجر في العراك ويخنقه، كبرنا ودخل زايد الجيش. في سنوات قليلة اختفى من السكّة بيت منين الطيني المتداعي وحلّ محلّه بيت إسمنتي بثلاث غرف وصالة، قيل إنّ زايد يترقّى بسرعة في عمله وينال رضا المسؤولين، ولكنّه لم يعد للعوافي إلاّ لمامًا على سيّارته الكامري الحمراء. أعاد بناء البيت وملأه بشوالات الأرزّ والسكّر وعلب الحلوى المشمّعة من بركاء. كان يعود دائمًا إلى العوافي بزيّه العسكري وصناديق الفواكه وعلب الفمتو، وبعمّال لبناء غرفة في البيت أو استبدال الباب الخشبي بآخر أكثر زخرفة، لكنّ منين، وقد كُفّ بصره وابيضّ شعر رأسه كلّه، لم يغادر حصاته ولا ثيابه الرثّة ولا نداءه القديم للمارّة. سمع الجيران الشجارات المحتدمة بين الأب وابنه الضابط، قال منين إنّه لم يعد يرى، وتعوّد على

الشارع والناس ولا يريد أن ينحبس في بيت حتى لو كان جديدًا. قال إنّه يداعب الناس بندائه ليتسلّى بالحديث معهم ولا أحد يعطيه شيئًا كما كان الحال أيّام الفقر. قال إنّه لا أحد يغسل له ثيابه أو يطهو الأرزّ الكثير المكدّس في البيت، وإنّه يحبّ الأكل مع الجيران وسط لمّة الأولاد واللعب. ولم يتبيّن الجيران شيئًا من صراخ ابنه، حين أردت أن أوزّع صدقة عن ابني محمّد أملاً في شفائه ذهبت للعوافي وذبحت خمس شياه ووزّعت لحمها، لكنّ منين رفض أن يأخذ شيئًا من اللحم، قال إنّ زايد لو عرف لن يسامحه. كانت الخادمة الهنديّة التي أحضرها له قد اهتمّت بملابسه وحمّامه أسابيع قليلة ثم تفرّغت لنفسها، وحين ارتفع بطنها بحمل واضح جاء زايد وأعادها لبلادها، عاد منين لهيئته القديمة وطلاقة وجهه المترب وضحكه وحصاته، أصبح يطلق نداءاته بصوت خافت ويصمت تمامًا، وينسحب داخل بيته الإسمنتي حين يكون زايد موجودًا في العوافي.

يصيح منين: «سنة الخرسة يا عبّود.. سنة الخرسة.. لمّا أتى الماء على الأخضر واليابس، لكن الحمد لله عشنا.. تكدّسنا في الخيام في بيت أبوك وبيت الشيخ مسعود نتقاسم التمر والعوال(١) عشرة على صحن واحد.. والحمد لله.. أقول عبّود: ما عندكم شربة فمتو في البيت؟... تقول لي معاش وزارة الشؤون؟.. ثلاثين ريال يا عبّود حتى سجريت ما يسدّوا كيف دفاتر زايد

(١) العوال: السمك المجفّف.

وأقلامه؟.. حفيظة شوفتها بسّ بثلاثة ريال... تقول لي روح تسبّح الأوّل يا منين وبعدين تعال، الله يصرف الحريم صرفة، ما منهنّ بدّ، في سنة الخرسة يا ولدي ماتن جوع وكانت الواحدة بتبيع نفسها حتى بنصّ قرش، لكن بعضهن يا عبّود راسهن يابس لا تنفع فيهن الفلوس ولا الكلام الحلو، أنا جبت لحفيظة هذه غرشة فمتو كبر زندي وما رضت.. ما ذاقت الجوع.. ما شافت سنة الخرسة.. تقول تسبّح تقول.. أقول لك زعتر أحسن عنّي؟». وبعد سنوات حين سيكفّ بصره وتتساقط أسنانه سيلحق بالزار ويدوس الجمر ويصرخ كما شاء، وفي الليلة التي وُجد فيها مقتولاً بطلقة مسدّس في رأسه كان قد عاد من الزار متأخّرًا وسكرانَ وظلّ يصرخ أمام باب بيته:

«منين مسكين أعطوه لقمة عيش أعطوه حبّة سجريت أعطوه حرمة ولو حفيظة النجسة». قال بعض الناس إنّه شهيد مقتول وصلّوا عليه، وقال بعضهم إنّه سكران فاسق ولم يشاركوا في الصلاة. حملوا جنازته ودفنوه في المقبرة غرب العوافي، وحين جاءت الشرطة في الصباح قال كلّ الناس إنّهم لا يعرفون شيئًا ولم يسمعوا شيئًا وأُقفل ملفّ القضيّة بعد أيّام، ولم ير أحد من العوافي زايد منذ الحادثة.

كان أستاذ ممدوح يدرّسنا كلّ شيء، ولم يكن في صفّنا أيّ بنات، لكنّ زايد كان يتسلّل بين الحصص إلى الصفّ الأوّل حيث تدرس أربع بنات مع الأولاد ويشدّ شعر إحداهنّ ويهرب إلى أن

اشتكته خولة لأبيها عزان فتوقّف، وحين درسنا سورة «الهمزة» نظر إليّ شزرًا حين أخذنا نردّد الآيات: ﴿ويل لكلّ همزة لمزة. الذي جمع مالاً وعدّده. يحسب أنّ ماله أخلده﴾، أفاض أستاذ ممدوح في شتم الأغنياء وتكديس المال والتجّار الذين يكنزون الذهب، وكاد زايد أن يلتهمني بنظراته الناريّة. وهكذا حين سألنا أستاذ ممدوح في يوم آخر عمّا يعمل آباؤنا ـ وهو على علم مسبق بالجواب ـ كدت أموت من الخجل ولم أملك الجرأة لأقول إنّه تاجر، قال الأولاد بكلّ ثقة: «مزارع، حدّاد، مزارع، نجّار، خيّاط دشاديش رجّال، قاضي، مؤذّن، مزارع. . .»، وتصبّبت عرقًا خوفًا من أن أقول إنّ أبي تاجر، بدا لي أنّ كلمة تاجر تعني شخصًا قبيحًا سمينًا تتدلّى كرشه أمامه وهو يكدّس الذهب ويعذّب الفقراء، وأنّ سرّي كابن رجل غني ـ يملك السيّارة الثانية في العوافي كلّها بعد الشيخ سعيد ـ سينكشف وسأكون عرضة للسخرية، صاح زايد: «أبوه التاجر سليمان، صاحب البيت الكبير والمزارع والأراضي حتى مسكد». ولم يسخر منّي أحد لكنّي أحسست بالخزي والعار وتمنّيت لو كان أبي مزارعًا كمعظم الآباء. وفي الفسحة كنت وزايد الولدين الوحيدين في الصفّ اللذين لم يذهبا للمقصف، كان كلانا لا يملك مصروفًا. أبي لم يقتنع قطّ ـ حتى وصولي للإعدادي ـ أنّ عليه أن يعطيني مائة بيسة كلّ يوم من أجل المدرسة، وحين حصلت عليها أخيرًا في الإعدادي كان الناس يعطون أولادهم مائتي بيسة أو ثلاثمائة. كان عليّ دائمًا أن أختار بين الخبز والجبن وشراب السنّ توب، ولم أستطع الحصول عليهما معًا حتى أنهيت الثانويّة.

عرفت مصابيح النيون الطريق لكلّ بيت في العوافي، غير أنّها تعثّرت قليلاً في الطريق لبيت مسعودة. الباب الحديدي الصدئ يشحذ حواسّها كلّما دفعه أحدهم ليدخل. الحوش الترابي المستطيل ينتهي بصالة ضيّقة مفتوحة بعقد نصف دائري وغرفة وحيدة. لا يكاد باب الغرفة يغلق. تصطفّ على جدرانها نسخ ورقيّة مهترئة من صور المسجد الحرام والمسجد النبوي وصورة ملوّنة مثبّتة بخلفيّة خشبيّة للبراق: فرس رشيقة برأس امرأة فاتنة. تتّكئ منامات من القماش الرخيص محشوّة بالإسفنج على جدار الغرفة مع بعض الأدوات البلاستيكيّة: سلال بأحجام وألوان مختلفة، ومغارف كبيرة وأوعية بأغطية بيضاء. بجانب الباب المفتوح مرآة بإطار قديم كُتب في مثلّث أعلاها «سلطنة مسقط وعُمان». أمّا الصالة فعارية تمامًا إلاّ من سجّادة متآكلة الأطراف وحصير مطويّ دائمًا بشكل قائم في الزاوية. غير أنّ مسعودة لم تطأ هذه الأماكن منذ زمن طويل. تدخل بعض الجارات ضحًى أو بعض الصبية في المغرب، فيئزّ الباب الحديدي وتندفع الرائحة المكتومة. ستصرخ مسعودة: «أنا هنا. أنا هنا»، والكلّ يعرف

أنّها هناك: في أقصى يمين الحوش غرفة صغيرة جدًّا ـ كانت تُستخدم كجرن سابقًا ـ ملحق بها حمّام عبارة عن شقّ طولي في الأرض الترابيّة وإبريق من الحديد. ومنذ أعلنت ابنتها جنونها حُبست مسعودة في الغرفة الصغيرة المفروشة بحصير من الخوص فوق الحصى الناعم. ارتجلت فتحة في الجدار تتوسّطها ثلاثة أسياخ من الحديد ودرفة خشب كنافذة عجلى للغرفة. وعدا العمود الذي تُربط فيه مسعودة حين يعلو صراخها وتكاد تكسر الباب الخشبي المقفل باندفاع جسدها ـ فلا شيء آخر في الغرفة. تستميت قبضتها على أسياخ الحديد في النافذة حين تسمع أزيز الباب الحديدي وتصرخ: «أنا هنا. أنا مسعودة. أنا هنا». كلّ يوم تدخل ابنتها شنّة مرّتين بوجبتي الغداء والعشاء من بيت التاجر سليمان، ومن النادر جدًّا أن تفتح فمها لتردّ على مسعودة وهي تناولها الصحن الممتلئ وتأخذ الصحن الفارغ، وتدخل بعض الجارات لكسب أجر عيادة مريض، وللثرثرة أحيانًا تحت نافذة الأسياخ الحديديّة. أمّا الصبية فيتسلّلون غالبًا للتبوّل تحت الجدار أو لتحدّي مسعودة في علوّ الصراخ.

شنّة تأتي أيضًا في أوقات غير منتظمة لتطلّ عليها وتملأ الإبريق في الحمّام، وفي منتصف كلّ شهر تحمّمها وتغسل شعرها وتعقصه ثم تكنس البيت وتنضح الحوش الترابي بالماء.

«أنا مسعودة أنا مسعودة أنا هنا». . في الغالب الريح الخفيفة

تدفع الباب الحديدي الصدئ وليس شنّة أو الجارات أو الصبية، لكن بلا أيّ مصباح، كيف لمسعودة أن تعرف وتتوقّف عن الصياح بكلّ قوّة:

«أنا هنا. أنا مسعودة».

سالم يقلقني، بعد معدّله الضعيف في الثانويّة قبلته إحدى الكلّيّات الخاصّة بصعوبة، وأحواله كلّها لا تعجبني، ولندن تقول لي: «سلبي. . أنت سلبي يا أبي. .»، ستكبر غدًا وتعقل، الآن ارتاحت من تجربة الحبّ الفاشل هذا وستبدأ صفحة جديدة، كم أشعر بالسعادة حين أرى ابتسامتها وهي ذاهبة للمستشفى تشدّ عليها معطفها الطبّي، الحمد لله الذي أنعم على الإنسان بنعمة النسيان!

عندما كنت صغيرًا كنت معتادًا على سماع حبيب يصيح فجأة: «النسيان؟. . أين هو النسيان؟» لم أحبّ حبيبًا أبدًا، حينما يراني مع ظريفة يدفعني بيده وهوِ يعرف أنّي لا أجرؤ على إخبار أبي، وظريفة لا تدافع عنّي، كم فرحتُ حين اختفى!. . كان ولده سنجر لم يكمل السادسة من عمره حين قال الناس إنّ حبيبًا قد هرب. صاحت أمّه العجوز وتمرّغت على الرمل ومزّقت ثيابها كأنّما تيقّنت من عدم رجوعه، لكنّ رحيله لم يدهش أحدًا، فقد كان يردّد مرارًا أنّه سيعود لأرضه التي انتُزع منها، ولحرّيّته التي اغتصبها القراصنة والتجّار. بعد سنوات قال بعض الناس إنّهم لمحوه في مقهى البلوش في دبي حينما كان لكلّ عرق مقهى هناك، لكنّ آخرين

أكّدوا أنّه عاد فعلاً إلى مكران في بلوشستان وتزوّج هناك وأنجب، وقال آخرون إنّه مات بالسلّ بعد فترة وجيزة من هربه قبل أن يتغيّر الحكم وتنتشر المستشفيات. لم تذرف عليه ظريفة دمعة واحدة، ولم أسمعها تتكلّم عنه، حين كبرتُ سألتها لِمَ لا تسأل عنه، فأجابتني بمثلها المفضّل: «يقول المتوصّف: آفتي معرفتي، راحتي ما أعرف شي». وربّت سنجر ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولمّا كبر وأنجب هاجر إلى الكويت، لم تتمرّغ ظريفة على الرمل ولم تمزّق ثيابها، انتظرت ثماني سنين حتى مات أبي لتلحق بابنها، لكنّها لم تلبث أن عادت وهي تسبّ «الأفعى» زوجة ابنها. ثم انقطعت أخبارها. انشغلتُ بانهيار البورصة والعقارات وبناء البيت الجديد في مسقط وزواج لندن وطلاقها ودراسة سالم ومرض محمّد وكلّ مشاكل الدنيا حتى سمعت فجأة أنّها ماتت. حضرتُ جنازة أبي المتوفّى في المستشفى وعمّي الميّت بالسكتة، وزيد الغريق في السيل، ومنين المقتول بطلقة مسدّس، وحفيظة الميّتة بالإيدز، ومروان المنتحر بخنجر أبيه، جنازات لآباء أصدقاء وأمّهاتهم ولم أحضر جنازة ظريفة. هكذا بكلّ بساطة لم يخبرني أحد، مرضت دون أن أعرف وماتت ودُفنت دون أن أعرف. رأيت أبي في المنام محمرّ العينين من شدّة الغضب، رأيته يلوّح في وجهي بحبل الليف وهو يسألني عنها. آه يا حبيب ما زالت أمّك العجوز حيّة حتى اليوم، أين صياحك في وجه طفولتي المجدب: «النسيان؟.. أين هو النسيان؟..».

النساء الزائرات منهمكات في تناول الحلوى والفاكهة، ظريفة تصبّ القهوة لهنّ ولا تترك جملة تمرّ دون تعليق، يتعالى الضحك والأصوات المتداخلة، الشكاوى المتكرّرة من الأزواج والأولاد، أخبار الزواج والطلاق والولادات الجديدة، ألوان الأقمشة العجيبة التي بدأت تنهال على دكّان حمدان، والتلفزيونات التي لم تعد مقصورة على بيت الشيخ سعيد وبيت التاجر سليمان، البيوت الطينيّة التي حلّت محلّها بيوت الإسمنت، يضحكن ومضيفتهنّ سالمة تشارك بابتسامة ساهمة، بالأمس ـ للمرّة الأولى منذ زواجها ـ أهداها عزان خاتمًا ذهبيًّا بفصّ أزرق كبير، وسالمة معروفة بين الجميع بكرهها للذهب وكلّ أنواع الحليّ، وما أُجبرت على شرائه وهي عروس تحتفظ به من يومها في صندوق حديدي مقفل في قاع مندوسها. هي وعزان لم يتبادلا الهدايا قطّ، كان يعطيها ما تحتاجه من مال ولا يناقشها في مصاريف البيت، لكنْ الهدايا! لم تشعر سالمة بالارتياح لهذه البادرة. زوجة المؤذّن وأرملة القاضي يوسف تهامستا بعدما ذهبت سالمة إلى المطبخ لإحضار المزيد من الفاكهة: «يا أختي أيّ رجل هذا يخلّي بنته تتسمّى هذا الاسم

الغريب؟ ما له شور وحرمته ميا مشتارة به، لو عنده عزم وشور كان ما يخلّيها تسمّيها اسم بلاد النصارى، لندن؟ تو حدّ يسمّي بنته اسم بلاد؟».

ميا تأكل التمر لوحدها في فراشها، فشلت محاولات أسماء في إقناع أمّها بمشاركتهم الطعام، وما تلته عليها من أحاديث نبويّة أغضب زوجة المؤذّن التي اتّهمتها بمحاولة تغيير الدين والإتيان ببدع من الكتب، لكنّ ذلك كلّه لا يعني ميا في شيء، فلا يهمّها الطعام ولا مشاركة الآخرين في تناوله، ولا تفهم كيف تقضي النساء كلّ هذا الوقت وهنّ يأكلن ويتحدّثن. تراقب صغيرتها وهي تصنع بفمها مثلّثًا صغيرًا، وتفتح عينيها وتغلقهما، بدأ بكاؤها يقلّ وأصبحت تقضي أوقاتًا أطول وهي تضرب الهواء بيديها وقدميها، ميا تحبّ مراقبتها وهي تفعل ذلك لكن أمّها تصرّ على لفّها بالقماط، اختارت ميا هذا القماط الأبيض بنفسها من سوق روي حين ذهبت لتلد في مسقط، اشترت أيضًا فانلات بيضاء صغيرة وقميصين أصفرين يصلحان للأولاد والبنات، وأخفت أحمر الشفاه لخولة بين ثيابها كي لا تراه أمّها. لا تعرف ما الذي يقلق أمّها على خولة، ميا تراها حنونة وناعمة وأحلى بنت في العوافي، وماذا فيها إن أصرّت على أبيها أن يشتري لها خاتمًا وأساور ذهبيّة؟ إنّها تستحقّ، ورزق أبيها واسع. ميا تتضايق من ضرب أمّها لخولة على أتفه الأسباب، إذا كانت أمّها لا تحبّ الزينة فهذا شأنها، لكنْ لتترك خولة في حالها، آه لو تطلع لندن جميلة مثل خالتها! تنهّدت ميا وراقبت شعر صغيرتها الأسود الذي بدأ ينمو تدريجيًّا، ثم

استقرّت نظراتها على جبينها المتجعّد قليلاً، تساءلت هل صحيح أنّ قدر الإنسان مكتوب على جبينه؟ ما المكتوب على جبين هذه المخلوقة الصغيرة؟ كيف لميا أن ترى على جبين ابنتها ليالي أرقها في أوائل عشرينيّاتها، الليالي التي ستستحضر فيها مرارًا وجه أحمد، فتضيع ملامحه لدرجة أنّها تشكّ أنّه كان حقيقيًّا وعلاقتهما حقيقيّة، لقاؤهما حقيقي وانفصالهما حقيقي، ستحاول رسمه في ذاكرتها، وستحاول التخلّص من رسمه، قُبيل طلوع الفجر ستتذكّر دائمًا صورة واحدة، صورته المنشورة في مجلّة الجامعة، وسترى في تلك الصورة الذي لم تره أبدًا منذ عرفته: النظرة الجانبيّة لعينيه، ستفهم لندن أخيرًا تلك النظرة: نظرة غير أمينة.

مسحت ميا جبين ابنتها وتحسّست الشعر الخشن، في أوّل الصباح جاء عبد الله ليراها وأحضر لها هذه الصناديق من الطعام المعلّب. أحسّت ميا بالخزي لكنّها لم تقل شيئًا، أوّلاً المولودة الجديدة لن تأكل قبل ثلاثة شهور، وثانيًا هي ليست عاجزة عن الطبخ لابنتها حتى يأتيها بعلب هاينز وميلوبا معلّبة منذ مدّة لا يعلمها إلاّ الله، لا أحد في العوافي يطعم أولاده هذه الأشياء، وإذا كان يظنّ أنّها ستقلّد امرأة عمّه في مسكد فهو مخطئ. ميا لا تتكلّم كثيرًا لكنّها لن تقلّد أحدًا، ستطبخ لابنتها بنفسها وستخيط لها فساتين ملوّنة لم ير أحد مثلها على طفلة من قبل، لن تخرج هذه البنت إلاّ بشعر مسرّح وحذاء وفستان بشرائط طويلة من الوسط، ستثبت ميا موهبتها في الخياطة ولن تشبه فساتين لندن أيّ فساتين أخرى كما لا يشبه اسمها أيّ اسم آخر.

في اليوم الذي انتقلنا فيه إلى البيت الجديد رأيت أمّي في المنام، رأيتها ملتفّة بغطاء أبيض سابغ وتمشي على الماء، وأنا أمشي وراءها وأناديها: «يا أمّي يا أمّي»، ولكنّها لم تلتفت إليّ ولم أر وجهها حتى استيقظت. ليت الكاميرات وصلت للعوافي قبل أن تموت، تقول ظريفة إنّي أشبهها، لكن عمّتي تقول إنّي أشبه أبي، في اليوم الذي خلعت فيه لندن نفسها وأعدنا المهر رأيت أمّي في المنام للمرّة الثانية، رأيتها تمشي بهدوء أمامي وأنا أمسك طرف لحاف رأسها، وأقول لها: «لِمَ قلعتِ شجرة الريحان يا أمّي؟»، ولكنّها لم تلتفت لي ولم أسمع صوتها، حين علمت بوفاة ظريفة رأيت أبي أوّلاً في المنام ثم رأيتها، طويلة ونحيلة، ضمّتني إلى صدرها وأنا قصير جدًّا، لا أكاد أصل لخصرها، انحنت عليّ، كان حضنها حضن ميا، ووجهها وجه ظريفة.

كالعادة وجدت ميا نائمة، حين نسهر معًا تنسحب لتنام بمجرّد احتدام المناقشات بيني وبين لندن أو سالم، وحين أعود من العمل عصرًا أجدها نائمة، كانت ظريفة تستشيط غضبًا إن نمت عصرًا

وتصيح فيّ: «يقول المتوصّف: كاسر جارك ولا تنام عصر»[1]، لكن ميا لم تُقم أيّ علاقات جدِّيّة مع الجيران حتى تشاجرهم، وتنام في أيّ وقت. في السنوات الأولى لزواجنا كانت دائمًا تستيقظ مبكرة، وبالكاد تنام القيلولة، ومنذ ولادة محمّد وساعات نومها تطّرد مع سنوات عمره، كانت تنام بجانبه في سريره الضيّق، ثم أصبحت تتركه بعد أن كبر وملأ جسده السرير. كثيرًا ما كنت أعود مساء لأجدهما متمدّدين ينظران للسقف حيث المروحة الكهربائيّة التي يهوى محمّد مراقبة حركتها الدائريّة، وإن أوقفت سيبكي بكاء متواصلاً، وهكذا تظلّ المروحة تتحرّك بغضّ النظر عن حرارة الجوّ، وميا تظلّ ممدّدة بجانبه لساعات حتى ينام فتتركه وتنام.

(١) من الأفضل أن تشاجر جارك بدل أن تنام عصرًا.

قالت سالمة لابنتيها أسماء وخولة إنّ ابنَيْ عيسى المهاجر، خالد وعلي، يخطبانهما، وإنّها وأباهما عزان لا يجدان مانعًا من الموافقة.

قالت أسماء بهدوء إنّها ستفكّر بالأمر ولا تريد من والديها أن يردّا قبل أن تخبرهما بقرارها، أمّا خولة فقد فتحت فاها مذهولة وهي تستمع لأمّها وأختها، وحين سكتتا بدأت تردّد كلمة لا بصوت خافت أوّلاً ثم بصراخ هستيري: لا لا لا لا.. ركضت باتّجاه غرفة البنات في طرف الحوش وأقفلت على نفسها الباب، رفضت أن تفتح لأيّ أحد حتى يرجع أبوها وتكلّمه بنفسها.

أسماء استمرّت في مساعدة أمّها في المطبخ، وفي القيام بواجبات البيت، تحضير القهوة كلّ صباح وعصر للنساء الزائرات، مناغاة ابنة أختها الرضيعة، الحديث مع ميا عن الكتب، الاستماع للراديو، القراءة، غسل ملابس أبيها وأختها النفساء وقماطات المولودة، لكنّها لم تكفّ لحظة واحدة عن التفكير بموضوع الخطوبة، وبعد أيّام قليلة قالت لأمّها بشكل عابر وهي تطحن الهيل للقهوة: «أمّي، أنا موافقة على خالد».

كان عزان يحثّ الخطى إلى بيته عائدًا من البدو متأخّرًا جدًّا، الريح الباردة تصطفق في ثيابه، الأحداث تمضي به بلا تخطيط، بدأت التلميحات تتزايد من حوله، وفي مساجلته الشعريّة بالأمس مع ابنته أسماء خرقت قواعد اللعبة وردّت على بيته: يزيدك وجهه حسنًا إذا ما زدته نظرًا، ببيتين اثنين ولا يبدأ أيّهما بحرف الراء كما ينبغي: إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلّ رداء يرتديه جميل، والثاني: صنت نفسي عمّا يدنّس نفسي وترفّعت عن جدا كلّ جبس. فهل بدأ الناس يحسّون بالقمر؟ القمر!.. نجيّة القمر! لقد عرَّفته القمر على جسده كأنّما لم يعرفه من قبل كما عرَّفته على أغوار سحيقة بذاته. بدا له كأنّه لم يعرف أيّ شيء قبل أن يعرفها. كلّ ليلة تسفّ قدماه الرمل وهو يركض إلى رائحتها، كلّ ذرّة في كيانه منقادة بلا اختيار لهذا الوجود الخارق في حياته، ولا يزيده لقاؤها إلاّ عطشًا إليها.

كانت الرؤية بينهما واضحة جدًّا منذ البدء: العلاقة الحرّة.

هذا ما أراده كلاهما: الحرِّيّة في العلاقة، ولوهلة ظنّا أنّهما بلغا الكمال في حرِّيّة الشغف الخالصة، لا تصنّع ولا مداراة ولا كذب، لا وعود ولا آمال، اشتعال اللحظة وحسب، لا قيود من الماضي والأهمّ من ذلك: لا قيود من المستقبل. هذا ما أراده كلاهما وسعى إليه: رجل حرّ وامرأة حرّة وعلاقة حرّة. بعد أسابيع قليلة اكتشف عزان أنّ علاقتهما الحرّة تسقط في أعنف أشكال العبوديّة. وأنّ هذه الحاجة الملحّة للآخر تقيّد كلاًّ منهما بأعتى

القيود، وتشغله عن كلّ شيء عداها. عرف أنّ الدورة اللانهائيّة من الاتّصال والانفصال بينهما حلقة محكمة يدوران فيها عبدين مقيّدين. كانت حاجته إليها عميقة وعنيفة ومبهمة، وكان لقاؤهما يزيدها عنفًا وغموضًا، وينادي أقاصي ما فيه من رغاب واشتهاءات. فتح عزان باب بيته الخشبي بهدوء وهو يفكّر: لا حرّيّة في الحبّ. ولا انتفاء لوجود الآخرين. اجتاز الحوش دون أن يلاحظ المصباح المضاء في غرفة البنات، وحين دخل الصالة وجد الجميع مستيقظين بانتظاره.

ميا المتدثّرة بشال صوفي أخضر تُرضع ابنتها، وأسماء ترتّب ملابس الرضيعة وأقمطتها وتتحاشى رفع رأسها، وسالمة متربّعة تنظر إليه. خلع نعليه فتساقط الرمل من قدميه، لم تقف لقدومه كما اعتادت، حكّ لحيته وقال: «إيش هناك؟».

قالت سالمة: «ابنتك خولة أقفلت على نفسها من الصبح ولا تريد تكلّم أحد حتى تأتي». لبس عزان نعليه ورجع إلى الحوش، طرق باب غرفة البنات بهدوء وما لبث أن فُتِح له.

تنهّدت سالمة، هبّ نسيم بارد وتساقطت قطرات هيّنة من المطر، الشتاء يذكّرها بطفولتها، حينما تتذكّر طفولتها تشعر بخيط رفيع من المرارة يلفّ قلبها، تحسّ أنّها في غيوم ناعمة اختلطت بها فجأة أحجار قاسية. ترى أباها، تراه دائمًا في صورتين تأتيانها في المنام، صورته وهو ينحني عليها وماء الوضوء يتساقط من لحيته ليحملها على كتفه ويحمل أخاها معاذًا على الكتف الأخرى،

وصورته وهو يُحتضر في شتاء بارد. تكره سالمة الشتاء، يذكّرها دائمًا برائحة بطّانيّة الصوف الخشنة ذات الشراشب التي كانت تلفّ أباها، وبجمر النار المتّقد لتدفئة غرفة احتضاره.

كانت عينا خولة منتفختين وأنفها محمرًّا، قالت لأبيها إنّه غادر، غدر بوعده لأخيه على فراش موته، ويريد أن يبيعها لعليّ ولد المهاجر، كيف يفكّر أحد بخطبتها وهي مخطوبة؟ كيف يفكّر والدها بالموافقة على هذا الخاطب ويغدر بالمرحوم عمّها؟

تكلّمت خولة بدون توقّف، قالت لوالدها إنّها لن تسكت كما سكتت ميا حين زوّجوها دون أن يسألها أحد رأيها، ميا لم تتعلّم ولكنّ خولة تعلّمت وستقتل نفسها لو أصرّ والدها على هذا الزواج. وصفت نفسها بأنّها منذورة لابن عمّها وأنّه منذور لها، ولا يحقّ لأيّ مخلوق أن يتجاهل هذه الحقيقة.

عزان استمع لابنته حتى فرغت من حديثها. أحسّ بالألم يعتصر قلبه لأنّه لم يتعرّف من قبل على هذه البنت التي لم تكد تتجاوز السادسة عشرة وتريد أن تقتل نفسها من أجل ابن عمّ لم يُسمَع عنه شيء منذ بضع سنوات.

قال لها: لا تخافي يا خولة يصير خير. وخرج من غرفة البنات، عاد إلى الصالة، لم يلتفت إلى أحد. دخل غرفته، توقّف المطر، وبقي عزان مسهّدًا حتى الصباح.

وقفت امرأة عمّي في حوش بيتها المصبوب بالإسمنت في وادي عدي، وضعت يديها على وسطها وصاحت في وجهي: «تربية أبوك المتسلّط لك سحقت شخصيّتك، ما لك شور في اسم بنتك؟.. لندن؟.. هذا اسم هذا؟.. شفت أحد يسمّي بنته العوافي أو مطرح أو نزوى أو وادي عدي؟». كنت أحسّ بالرغبة في الضحك، ولكنّي لا أضحك، ابن عمّي مروان الملقّب بالطاهر كان يقعد على الدكّة في أوّل الحوش وينظر إلينا، ولا يتكلّم، كان دائمًا صامتًا على عكس أخيه قاسم الذي يقاربني في العمر، ولذلك كنت أميل إلى مروان الأصغر، إلى صمته وشروده واستغراقه في التأمّل. لم أقل شيئًا لامرأة عمّي، هي التي أوعزت لعمّي قبل سنوات بالانتقال من العوافي خوفًا من سيطرة أبي، وهي التي باعت بيت وادي عدي ذاك المحاط بالدكاكين الصغيرة بعد وفاة عمّي، وهي التي لم ترجع جثمان مروان الطاهر إلى العوافي ليُدفن في مقبرتها ككلّ أهلها.

لم أكرهها، حين كنت صغيرًا جدًّا كانت تسكن مع عمّي وأولادهما في الجزء الشمالي من بيتنا ولكنّها تصرّ أن تطبخ

لأولادها بنفسها وتترك عمّي ليشاركنا الطعام، أسمع دائمًا أصوات الشجار بينها وبين عمّتي ومحاولات عمّي للصلح بينهما، وحين أجلس على المصطبة بجانب باب بيتنا المفتوح بعد صلاة الفجر تمرّ بجانبي وعلى رأسها صرّة الغسيل متّجهة إلى الفلج، لا تلتفت إليّ إلاّ نادرًا لتسألني السؤال نفسه: «أيش تعشّيتم أمس؟» لم أجب على سؤالها أبدًا، وإن كنت أشعر بالخجل منه. كان الحديث عن الطعام في بيتنا أمرًا معيبًا، وإذا ما كنت جائعًا وسألت ظريفة ماذا ستطبخ للغداء فإنّ الإجابة الوحيدة التي أتلقّاها هي: «بتشوفه». هكذا الطعام في بيتنا، نشوفه في وقته ونأكله بسرعة دون أيّ أحاديث على المائدة، ونغسل أيدينا ونحمد الله ولا نتكلّم عنه أبدًا ناهيك عن انتقاده. لكنّ امرأة عمّي تسألني هذا السؤال الغريب، وبيتنا الضاجّ بالمملوكين والمعتوقين والضيوف على كلّ وجبة ليس أمر العشاء فيه بسرّ حتى تسألني عنه. إذا لم يكن قابولي لحم فإنّه معصورة قاشع[1] بكلّ تأكيد. في أحد الأيّام كنت جالسًا أراقب الأولاد وهم يلعبون الكرة، كنت أتمنّى مشاركتهم لكنّ أبي منعني من مغادرة البيت إلاّ برفقته، كان قلبي يثب مع كلّ هدف وأصرخ: «جووووول» وأنا أقفز من مصطبتي. جاءت امرأة عمّي والماء يسيل من صرّة الملابس على رأسها، وجسمها الفارع يتحرّك بنشاط وتوازن تحت الصرّة، ضحكت حين رأتني وقالت: «مربوط هنا يا

---

(١) القابولي يُصنع من الأرزّ بالبهارات ويشبه في الخليج الكبسة، والمعصورة خليط من الليمون والبصل والسمك، والقاشع السردين المجفّف.

عيني؟.. أيش تعشّيتم أمس؟» وثبتُ فيها وأسقطت الملابس المبتلّة على التراب وأنا أصيح: «سمّ.. تعشّينا سمّ.. ارتحتِ؟». تطاير الشرر من عينيها، لكنّ مسعودة جاءت في اللحظة المناسبة وأبعدتني من أمامها.

كانت مسعودة تلهث تحت حزمة الحطب على ظهرها بعد أن قضت ساعات الفجر الأولى في الصحراء خارج حدود مزارع العوافي، تقطع الأغصان الجافّة من شجر السمر وتلفّها بحبل، ستتحوّل أحطابها لاحقًا إلى جمر تحت مراجل عشائنا، وستعود في الفجر التالي لتحتطب من جديد، قالت لي وهي تلهث: لا تكلّمها، تعال ادخل البيت. منذ ذلك اليوم تجاهلتني امرأة عمّي تمامًا وبعد أشهر أخذت عمّي والأولاد واستقرّوا في وادي عدي في العاصمة.

لم أسمع السؤال عن العشاء مرّة أخرى حتى كبرت وسافرت، وجدت الناس يتحدّثون بالساعات عن الطعام، وصدمتني الإعلانات التلفزيونيّة التي تصوّر الأفواه المفتوحة المتلذّذة وهي تلتهم أصناف المأكولات، والناس من حولي يسألون بعضهم البعض بكلّ بساطة: «ماذا أكلت؟ وماذا ستأكل؟». ابني سالم يرجع من كلّيّته وقبل أن يقول لنا مساء الخير يسأل: «أيش العشاء؟»، إذا لم يعجبه ردّ أمّه فسيستدير خارجًا وينطلق إلى محلّ البيتزا أو الماكدونالد.

مجرّد أن خرج أبوها من الغرفة سارعت خولة بإقفال الباب مرّة أخرى، وقفت تتنهّد أمام النافذة، وحين لاحظت هطول المطر جلست باتّجاه القبلة، كانت أمّها تردّد دائمًا أنّ الدعاء يُستجاب وقت نزول المطر. رفعت خولة يديها وكرّرت الدعاء الذي تقوله عقب كلّ صلاة، وحين ينزل المطر وحين تكون صائمة: «يا ربّ ردّ لي ناصر قبل أن أموت من الحزن».

بعد أن فرغت من الدعاء توسّدت باطن كفّها اليمنى وتكوّرت كجنين، تحبّ أن تسمع صوت المطر، وتحبّ أكثر أن تركض تحته وتحسّ بالبلل حتى جذور شعرها، لكنّها لا تجرؤ عندئذ أن تدخل إلى الصالة بمرأى من أمّها، بل تتسلّل إلى غرفة البنات لتجفّف نفسها. انقلبت خولة على ظهرها وأخذت تتأمّل السقف، المروحة البيضاء، ومصباح النيون المستطيل، وتفكّر بناصر.

كانا صغيرين جدًّا، يلعبان كلّ عصر مع باقي أولاد الجيران لعبة فِرَق: فريق الحيّ الشرقي وفريق الحيّ الغربي، كلّ فريق يلاحق الآخر في كلّ سكك العوافي وحاراتها، خولة تتجنّب زايد الذي يشدّها من ضفائرها وتظلّ ملتصقة بناصر أينما ذهب، عادة ما

يهربان من اللعبة ويقفز هو إلى بيت المؤذّن ليقطف لها وردة ورديّة اللون من شجيرة الورد الوحيدة في الحوش ويدسّها في ضفيرتها، ينسى دائمًا تنبيهها له ليزيل الشوك عن الساق، وانجرح جبينها غير مرّة من ورود بيت المؤذّن.

انقلبت خولة على جنبها وتوسّدت باطن كفّها اليسرى، واجهتها اللوحة الوحيدة على الجدار، ميا علّقتها قبل أن تترك الغرفة وتتزوّج، إطار ذهبي رفيع يحيط بمراعٍ شاسعة وغيوم منعقدة، هذا المنظر لا يوجد طبعًا في الواقع وإن كانت ميا تقول إنّه يوجد في إنجلترا، لكنْ كلّ هذه المساحات الخضراء؟ معقولة؟ أكبر مساحة خضراء رأتها هي مزرعتهم حيث خبّأت المظروف الذي يحتوي صورة ناصر في جذع النخلة.

إنّها تتذكّر ذلك اليوم جيّدًا، تعب الأولاد والبنات من اللعب وبدأ الضوء يتلاشى، انسحب أكثرهم إلى بيوتهم وبقي قلّة منهم، اقترحت نورة أن يلعبوا لعبة الأسماء والوظائف المستقبليّة: يكتبون قوائم طويلة من الأسماء مرقّمة، والوظائف كذلك، وعلى كلّ واحد أن يختار رقمًا ليرى اسم شريكه المستقبلي ووظيفته، وحين اختار عبد الرحمن ولد القاضي يوسف رقم ٢٠ طلع له اسم الزوجة خولة، فطلب منه ناصر أن يغيّر رقمه، رفض عبد الرحمن فغضب ناصر وصارعه، ترك أنفه نازفًا وهو يردّد: «خولة بنت عمّي وزوجتي أنا، نحن مخطوبان». كم كان عمرها يومها؟ لا ريب أنّها لم تتعدّ التاسعة، وناصر؟ ربّما كان في الثانية عشرة من عمره أو

أكثر بسنة. تتذكّر كيف اقتادها من يدها إلى بيتهم حيث قدّمت لها أرملة عمّها التمر بالسمن، وكيف دسّ في يدها قبل أن تذهب المظروف وبه صورته التي انتزعها من شهادة المدرسة، وكيف ضربتها أمّها حين عادت والظلام يملأ الدنيا.

انقلبت خولة على ظهرها، عقدت يديها خلف رقبتها، لا تحبّ هذا الصبغ الزيتي الحليبي الذي صُبغت به هذه الغرفة لكنّها ترتاح فيها. منذ أن كبرت ميا فكّرت أمّها ببناء غرفة للبنات، غرفة غير متّصلة بالغرف الأخرى وبالصالة تحديدًا، بيتهم مدخول كما تقول أمّها، ممّا يعني أنّ النساء يدخلنه باستمرار، ولا ينبغي أن تكون البنات وهنّ يكبرن ويتفتّحن في مواجهة عيونهنّ الفضوليّة، كما لا ينبغي أن تسمع البنات أحاديث النساء الكبيرات، التي تسمّيها أمّها «خراريف حريم». رحّبت هي وأخواتها بالفكرة، الحجرة القصيّة في الحوش تعني أن تنفرد أسماء بكتبها كما تشاء وتنفرد خولة بمرآتها كما تشاء، أمّا ميا فهي تخيط غالبًا في الصالة إلاّ حين يمتلئ البيت بالنساء فتومئ لها أمّها لتنسحب إلى غرفة البنات، تنهّدت خولة، كان ذلك قبل أن تتزوّج ميا وتشارك في «خراريف الحريم» وتصبح معها طفلة ضئيلة.

سجّادة حمراء كبيرة تتوسّط الغرفة، وخزانات خشبيّة ثلاث متجاورة استندت على الجدار، لكلّ بنت خزانتها، أمّها ذهبت إلى النجّار، اختارت التصميم والنقوش بنفسها، وهكذا لم تحصل خولة على خزانة تمتدّ مرآة بطول بابها. مرآتها الوحيدة هي هذه

المستطيلة المؤطّرة بالخشب المعلّقة على الجدار قبالة الخزانات، تضطرّ خولة للوقوف حتى تسرّح شعرها أو تضع أحمر الشفاه الجديد الذي جلبته لها ميا من مسقط. ماذا سيقول ناصر حين يرى شعرها الطويل الناعم في ليلة زفافهما؟ كتب أسماء تزحف على أدراجها وأدراج ميا، تعجب خولة من تحمّل أسماء للملل الفظيع الذي تجلبه هذه الكتب التراثيّة، الكتب الوحيدة التي يمكن أن تقرأها هي الكتب التي تزدريها أسماء وترمي بها باستخفاف من يدها: روايات عبير.

صديقتها نورة اكتشفت هذه الروايات أثناء زيارة لأقاربها في مسقط، جلبت عددًا منها لخولة فأدمنتها. قصص الحبّ الجميلة في الغابات والمراعي والسهول، البطلة الرقيقة الجميلة والبطل الوسيم القوي. وقبل أن تنام تتخيّل نفسها مع ناصر في الجزيرة الخضراء البعيدة محاطين بالحيوانات والطيور والطبيعة الساحرة. بقيت صورته في خزانتها بين طيّات ثيابها لعدّة أشهر، ثم حذّرتها نورة من أن تجدها أمّها فجأة فاتّفقتا على أنّ أفضل مكان لها هو جذع أكبر نخلة في مزرعة أبيها. هناك رقدت الصورة محشورة في مظروفها بين الليف، وإلى هناك ظلّت خولة تحجّ طوال سني مراهقتها. حين دخلت أرملة عمّها المطبخ لتحضر لها التمر والسمن، أمسك ناصر بيدها وقال لها: «لا تتزوّجي عبد الرحمن، أنت خطيبتي أنا، أنا ولد عمّك وليس هو». لم تنس جملته، ولا يمكن أن ينساها ناصر، سنتان أو ثلاث أو خمس، فليكن، وماذا فيها إن كانت ظروفه تمنعه من العودة؟ لا شكّ أنّه مشغول

بالدراسة، ولا يتمكّن من إرسال الرسائل لخولة خوفًا من غضب أمّها، نعم إنّه لم ينسها، وهي خطيبته، وستنتظره.

حين نجح في الثانويّة ووزّع علب المشروبات الغازيّة على الجيران كانت هي ما تزال في الإعدادي، جُنَّت من الفرح، وشربت ثلاث علب لوحدها، وأهدته قلمًا فضِّيًّا جميلاً اشترته لها نورة من مسقط. قبَّل القلم أمامها فذابت من الخجل، أخبرها أنّه حصل على بعثة إلى كندا، وأنّ عليها أن تجهّز نفسها للعرس الصيف القادم ليأخذها معه. بكت، ورسمت له قلوبًا حمراء مطعونة بالسهام في رسالة طويلة، ولمّا لم تجد صورة لتعطيه إيّاها على طريقة بطلات روايات عبير، فعلت مثله: نزعت صورتها من شهادة السادس ابتدائي، أعطته صورة الطفلة المدهوشة ذات الضفائر الطويلة وحرز الحمى الأزرق يحيط برقبتها.

تقلّبت خولة على السجّادة الحمراء وسط الغرفة، تنهّدت، انتشرت الشائعات، قالوا إنّه رسب في السنة الأولى، قالوا إنّه انشغل بأشياء لا علاقة لها بالدراسة، قالوا إنّه لم يتّصل حتى بأمّه، قالوا إنّ الوزارة قطعت بعثته لرسوبه المتكرّر، قالوا إنّه لن يعود. فليقولوا ما يشاؤون، ناصر سيعود، سيعود لها، لخولة الجميلة التي ستنتظره وتعتني بنفسها وجمالها من أجله، من أجل عرسهما الوشيك.

حصّالة النقود البلاستيكيّة على شكل بيت بنّي اللون ترقد في خزانتها ولا أحد يعرف أنّه أهداها إيّاها حين نجحت في أوّل

إعدادي، أقسمت خولة إنّ كلّ مائة بيسة تدخلها لن تخرج منها إلاّ لجهاز عرسهما. من ولد عيسى المهاجر هذا الذي تجرّأ على خطبتها؟ ألا يعرف أنّها مخطوبة؟ ما هذه الجرأة العجيبة؟ كيف يخطبونها وعندها ابن عمّ هي منذورة له؟ «والله والله تنقصّ رقبتي شطفة شطفة، لو أصرّ أهلي على تزويجي من ولد عيسى المهاجر هذا لقتلت نفسي».

أرى من نافذة الطائرة سيل الأنوار يسيل من المدن على البحر، سيل متعرّج ومهادن، لا يشبه سيل العوافي الذي أغرق زيدًا.

كان ذلك قبل أن أرى ميا بسنة تقريبًا، أصبحت صورة جثّته المنتفخة بماء السيل تطاردني في كلّ منام، أصبحت أراه أمامي فجأة وأنا عائد من الأمسيات التي أختلسها لأستمع لأنّات عود سويد. وحين رأيت ميا، حزينة وجميلة وشاحبة، منحنية على ماكينة الخياطة كأنّها ستحضن طفلاً، لم أعد أرى زيدًا، لا في المنام ولا في عتمة الطريق إلى بيت أبي.

أصبحت أكثر خفّة، أوشك أن أتلاشى في نغم العود، أوشك أن أذوب في غشاوة الشحوب في وجه ميا، أوشك أن أصبح سيلاً يجرف ماكينة الخياطة ويعلّقني مكانها، أوشك أن أشعر بطينتي الأولى تتخلّق من جديد في أصابع ميا النحيلة وفي أصابع سويد المنسابة على أوتاره.

لولا أن رآني أبي.

لسبب ما، لم يبق في غرفته بعد صلاة العشاء، ظننته قد أوى

لفراشه مثل كلّ ليلة، فخرجت وأقفلت ظريفة الباب خلفي على أن تفتحه قبل أن تنام.

لكنّي حين عدت وجدت الباب مغلقًا، فوقفت حائرًا وخائفًا، هل يعقل أن تنساني ظريفة؟ هل أغلق أيّ شخص آخر الباب؟

لكنّ حيرتي لم تطل، انفتح الباب بغتة ورأيت وجه أبي في العتمة.

«ولد فطّوم.. ولد فطّوم.. تكبر عليّ أنا؟.. تخالفني أنا؟.. ولد فطّوم...».

زمجر بكلام كثير، لكنّي كنت قد فقدت الوعي حين هوت إحدى لكماته على مكان ما في رأسي. تركني نازفًا عند الباب وحين أفقت كنت أسمع بكاء ظريفة ولا أراها.

صرخت: «أنا لم أعد ولدًا، وسأخرج لأسهر مثل كلّ الشباب».

لكنّ صوتي كان أضعف من أن يُسمَع.

أكان على خمس وعشرين سنة أن تمرّ حتى أصرخ في سالم: «سهران للآن؟.. تخالفني أنا؟..».

كان قد عاد في الثانية صباحًا، وخُيِّل إليّ أنّه سكران.

أردت أن أصرخ في وجهه أكثر، لكنّي لم أتعرّف الصوت الذي خرج منّي.

لم يكن صوتي.

كان صوت أبي في عتمة باب بيته يلكم وجهي ورأسي.

في الصباح التالي كنت أُحكم لفّ المصر على رأسي استعدادًا للخروج حين دخل سالم إلى غرفتي، ما زال يبدو كالسكران، قال لي: «أنا آسف جدًّا»، وخرج.

حين كرّرتُ لميا: «قلت لك ولدك هذا لن يفلح»، اعتذرت عنه، قالت إنّ الامتحانات انتهت، وكلّ زملائه يسهرون، قالت إنّه لم يعد ولدًا.

دقّت ظريفة الباب بكلّ قوّتها: «اخرج يا سنجر».

هرول مسرعًا: «خير يا أمّي!!».

لم ترضَ أن تدخل غرفته، سارا معًا في حوش البيت الكبير أوّلاً ثم خرجا إلى السكك التي تنيرها إضاءات خافتة من البيوت على جانبيها، قالت له: «صحيح اللّي سمعته يا سنجر؟ تترك بلدك وأهلك وتسافر؟..».

قال سنجر: «نعم، صحيح، وتعالي معي إذا تريدي».

هجمت عليه تشدّ رقبته: «تسمّي بنتك هذا الاسم الغريب رشا وتريد تهاجر؟».

أفلت يدها بقسوة وصاح فيها: «اسمعي يا أمّي، بنتي ما يهمّني اسمها ولو كانت ولد سمّيته محمد أو هلال أو عبد الله..».

صاحت ظريفة: «أيش؟.. سيقتلك التاجر سليمان.. تسمّي على اسم أهله وأولاده؟.. أنت جنّيت يا ولد؟ تكبّر راسك على من؟... من ربّاك وعلّمك وزوَّجك؟».

تكلّم من بين أسنانه: «اسمعي يا ظريفة، التاجر سليمان ربَّاني

وعلّمني وزوَّجني لمصلحته هو، من أجل أنّي أخدمه وتخدمه امرأتي وأولادي، لكن لا يا ظريفة، التاجر سليمان ما له دخل بي، نحن أحرار بموجب القانون، أحرار يا ظريفة، افتحي عيونك، الدنيا تغيّرت وأنت تردّدين حبابي وسيّدي، كلّ الناس تعلّموا وتوظّفوا وأنت مثل ما أنت، عبدة التاجر سليمان وبسّ، هذا الشايب الخرفان، افتحي عيونك يا ظريفة، نحن أحرار، كلّ واحد سيّد نفسه، ما حدّ سيّد حدّ، أنا حرّ، أسافر كما أريد وأسمّي أولادي كما أريد، وإذا تريدي تبقي أنت معه ابقي..».

كادت ظريفة أن تمدّ يدها لصفعه كما اعتادت في سِني شيطنته التي ليست ببعيدة، لكنّه ابتعد عنها، فارتمت تحت جدار أحد البيوت لا تملك حبس دموعها، سمعت نشيجها فاطمة التي تصادف وجودها في السكّة فاقتربت منها، ما إن رأتها ظريفة حتى اتّخذت الوضعيّة التي تتّخذها النساء في العزاء عادة: رمت بساعديها على كتفي فاطمة وقاربت بين رأسيهما وأخذت تهزّهما معًا وتبكي: «راح الولد يا فطّوم، راح الولد منّي، يتكلّم مثل أبوه ويهذي مثله وبيروح مثله، أحرار أحرار، عذّبني أبوه بهذا الكلام، ما صدّقت راح حبيب وجاني ولده، أحرار ولاّ عبيد! أنا أيش خصّني؟ أنا أريد ولدي قربي، أكيد هذي الأفعى امرأته توسوس له يتركني ويروح، تريد تحرق فؤادي عليه، وين بيروح؟ أيش بيشتغل؟ من بيطعمه وبيحميه؟ راح ولدي ووحيدي يا فطّوم.. راح». فطّوم التي احتضنت ظريفة استغرقت معها في البكاء.

لكنّ شنّة زوجة سنجر لم تكن صاحبة الفكرة، وإن شجّعتها.

قبل سنة، حين أخبرت ظريفة شنّة بُعَيد وفاة والدها أنّها تخطبها لابنها سنجر جُنّت من الفرح، كان الزواج من أيّ رجل على وجه البسيطة والخروج من بيتهم المتداعي هو أقصى ما تتمنّاه، لم يكن سنجر يملك شيئًا بطبيعة الحال، ولكنّها كانت على اطّلاع تامّ بنواياه في الرحيل عاجلاً أم آجلاً، وكانت قد سئمت العوافي، ناسها وحيواناتها وجبالها ومزارعها، وشاركت سنجر رغبته العميقة في حياة جديدة في مكان بعيد لا فقر فيه. تعبت من الفقر وما لازمه من قذارة واستجداء وافتقار للأناقة أو مجرّد تذوّقها. تعبت من حمل الماء على رأسها كلّ صباح وعصر، من دخان الطبيخ ومن غبار الكنس، لكنّ ما عافته حقًّا أكثر من العوافي وناسها وحيواناتها والفقر والخدمة هو أمّها.

منذ أن فتحت عينيها على الحياة وهذه الأمّ منحنية، لم ترها إلاّ منحنية، عيونها منتفخة بلا أهداب ويداها يابستان متشقّقتان، وحين كبرت شنّة قيل لها إنّ ظهر أمّها قد تقوّس من شدّة انحنائها على مكنسة الخوص، ومن حمل الحطب. تجنّبتها شنّة قدر الإمكان وأظهرت نفورها بقدر ما يمكن لبنت أن تفعل دون إثارة الأقاويل، وإذا بالأمّ المنحوسة لا تكتفي ببؤسها حتى تصيبها هذه الحالة الغريبة بعد وفاة زوجها، «جُنّت طبعًا» قالت شنّة لنفسها كما قالت لباقي الناس، هي لم تفهم أبدًا كيف كان أبوها يعطف على هذه المرأة التي قضت كلّ حياتها تحتطب وتكنس الأرض،

وتستغرب حين كانا يقضيان الليالي الطويلة يتسامران ويضحكان أحيانًا، كان أبوها قويًا اشتهر بأنّه يحمل شوالين من الأرزّ أو جرابين من التمر بكلّ سهولة، وقد بنى هذا البيت من الجصّ لأمّها بيديه، كان بوسعه أن يتزوّج غيرها ولكنّه ظلّ ملتصقًا بهذه المرأة الغريبة. فكّرت شنّة مرارًا: لو تزوّج غيرها لربّما كان لها الآن إخوة وأخوات يحملون عنها همّ هذه الأمّ، ولكن كما تقول دائمًا ظريفة التي ستصبح حماتها: «دابّة الشقاء للشقاء»، ما أدراها لعلّ هؤلاء الإخوة يتنصّلون منها باعتبارها امرأة أبيهم ويرمونها لشنّة؟.. على كلّ حال سنجر سيهاجر كما فعل أبوه من قبله، وستتخلّص شنّة من هذا الهمّ، ومن هذا الصوت الرتيب الذي يرنّ في قعر جمجمتها: «أنا هنا.. أنا مسعودة» فيحرجها أمام الجيران وناس العوافي الذين تمقتهم كلّهم.

مجرّد أن فرغ محمّد من التعلّق بمراقبة حركة المروحة، انشغل بلعبة أخرى: فتح الباب وغلقه، تنقضي جميع ساعات النهار وهو يفتح الباب ويغلقه دون توقّف، عبثًا نحاول إشغاله بشيء آخر، أو ترديد الكلمات القليلة التي يستطيع نطقها بلا رابط.

في البداية كنت أخرج من البيت، يصرّ محمّد أن تبقى أمّه بجانبه وهو يفتح الباب ويغلقه، وهي لا تتكلّم. أتعب من الشركة والأصدقاء والمقاهي وأعود لأجدهما على الحالة نفسها. هو يردّد الكلمات غير المترابطة كالببّغاء وهي بجانبه. ينهدّ أخيرًا من التعب وينام فتذهب هي لتنام، لا تستيقظ حتى يستيقظ. ذات يوم عدتُ وكانت ميا تستحمّ في الحمّام، أخذ صوت فتح الباب وغلقه بهذه الرتابة يدمّر روحي بانتظام، وأوشكت أن ألطم رأسه بالباب أو ألكمه بقبضتي. تمنّيت أن يفتح النافذة بدلاً من الباب ويطير منها. نعم أردت أن يطير محمّد من النافذة كالعصافير ويسكت هذا الصوت الرتيب نهائيًّا.

أخبر عزان سالمة أنّه قبل خطبة خالد ولد عيسى المهاجر لابنته أسماء، واعتذر عن عدم قبول خطبة أخيه لخولة لأنّها محجوزة لابن عمّها، نظرت سالمة في عينيه بغضب: «ابن عمّها من؟ ناصر اللّي ما سمعنا عنه من أكثر من أربع سنين؟ اللي عمره ما سأل عنّا ولا عنها؟ من متى خولة محجوزة؟ أيش هذا الكلام؟.. وينه ابن عمّها؟.. صايع ضايع في كندا ونواحيها ونحن نردّ الخطّاب عن بنتنا؟..».

أشاح عزان بوجهه: «أنا ردّيت على الناس وانتهى الموضوع، إذا تريدي تجهّزي بنتك أسماء وتتّفقي مع الحريم على المهر والعرس جهّزي واتّفقي، لكن خولة لا».

رمى شالاً صوفيًّا على كتفه، وخرج، مثل كلّ ليلة.

سارت سالمة بهدوء إلى الغرفة الوسطى، ميا نائمة، حملت الرضيعة بين يديها، فكّت قماطها وأخذت تدهن سرّتها الملتهبة بالزيت والملح، فتحت الرضيعة عينيها وبدأت تنظر إلى سالمة، فلم تتمالك دمعة ثقيلة وهي تتذكّر محمّدًا الذي مات رضيعًا، وتحاول ألاّ تتذكر أحمد، أحمد الذي يشبه هذه المولودة، ولا تريد أن تتذكّره.

أعادت لفّها بالقماط بإحكام ووضعتها على حجرها، نظرت في وجهها قليلاً ثم أغمضت عينيها، وحين فتحتهما لم ترها، لم تر حتى محمّدًا أو أحمد الراحلين، لم تر وجه عزان المنقبض، لم تر الغرفة الزرقاء والروازن الملأى بالأواني الصينيّة وإنّما رأت بيت عمّها.

بيت عمّها؟ إنّها بالأحرى ترى خطّ التقاء الجدار العالي، جدار القلعة السميك، مع السماء.

كم من السنوات انقضت وهي متّكئة على جدار المطبخ الخارجي، تسمع شجار العبدات داخل المطبخ ونكت العبيد وصياحهم، وصراخ الأولاد وعراكهم في الحوش، وصوت زوجة عمّها الرفيع يلقي الأوامر، ولا يسمعها أحد، ولا يكلّمها أحد.

كم من السنوات انقضت وهي متّكئة هناك، لا تُرى ولا تُسمَع، تراقب خطّ التقاء الجدار بالسماء.

حاولت مرارًا أن تتذكّر إحساسها وهي متّكئة هناك، هل كانت حزينة لموت أبيها؟ هل كانت مشتاقة لأمّها؟ هل كانت غاضبة؟.. لا تتذكّر، تتذكّر فقط أنّ السماء كانت مشمسة، ورائحة دخان المطبخ تملأ المكان، وتتذكّر إحساسًا واحدًا: الجوع.

كان الناس يتحدّثون عن آثار الحرب العالميّة، والغلاء الفاحش، واضطرابات القبائل، وهي لا تفهم ما علاقة ذلك كلّه بنظرات زوجة عمّها ليدها وفمها أثناء تناول الغداء. نسيت سالمة وجبة الإفطار منذ مات أبوها وأصرّ عمّها على أخذها ومعاذ إلى

بيته. يشرب الكبار القهوة مع حبّات من التمر، وتنتظر هي حتى وقت الغداء.

إن كان هناك ضيوف من قبيلة أخرى ستشمّ رائحة الشواء والمرق وخبز الرقاق، ثم ستجتمع مع أولاد عمّها وزوجته حول ما تبقّى من صحن الضيوف الضخم، وعادة لا يكون هناك سوى قليل من المرق وعظام الشواء. أولاد عمّها يتعاركون على ما تبقّى من طعام الضيوف، وزوجة عمّها تصوّب النظرات إلى يدها. ستشعر سالمة أنّ يدها كبيرة جدًّا كلّما امتدّت إلى الصحن، وأنّ فمها ضخم وقبيح. إن لم يكن هناك ضيوف سيدقّ القاشع ويخلط بالبصل والليمون والماء ويقدّم مع التمر للغداء، فالأرزّ كان غاليًا لدرجة أنّه لا يقدّم لغير المرضى. كانت تكره رائحة القاشع لكنّ بطنها يؤلمها غالبًا من شدّة الجوع فتأكل.

نعم، الجوع. هذا ما تتذكّر من حياتها في بيت عمّها.

صاحت الرضيعة بصوتها الحادّ، فالتفتت إليها سالمة، إنّها جائعة «قومي يا ميا أرضعي بنتك». قامت ميا وبعدما أشبعت طفلتها وأنامتها تمدّدت بهدوء في فراشها الموضوع على الأرض، جاءت أمّها بحصاة ملساء كبيرة ووضعتها لدقائق فوق الجمر المشتعل في الكانون، لفّت الحصاة بفوطة لتحتفظ بدفئها دون أن تحرق جلد ميا، كشفت ميا عن بطنها فوضعت أمّها الحصاة عليه ثم لفّتها بلحاف رأس قديم، ولمدّة أربعين يومًا، كان على ميا احتمال الدفء الزائد للحصاة مرّتين يوميًّا على بطنها لكيلا يترهّل بعد

الولادة. لم يكن ذلك يزعجها قدر ما أزعجها اللفّ المحكم للّحاف على بطنها ليلاً ونهارًا، طوال أربعين يومًا، حتى اغتسلت من نفاسها، وخرجت ببطن مشدود.

دخلت أسماء وابتسمت لمرأى الحصاة الملفوفة على بطن ميا، قالت لها سالمة: سأذهب إلى مطرح لشراء الذهب والثياب والمندوس لعرسك الشهر القادم.

هزّت أسماء رأسها، وهي تبتسم في سرّها لأمومتها المنتظرة.

فكّرت أنّه لا يوجد كتاب واحد في رفّ كتبها يشير للأمومة الرائعة، هل كان جدّها الشيخ مسعود الذي ورثت أمّها مكتبته غير مهتمّ بالأمومة، أم أنّ المؤلّفات شحيحة أصلاً في هذا الموضوع.

أسماء لا تعرف الجواب، فهي لم تر مكتبات أخرى في حياتها.

رأس عزان في حجر القمر، وعيناه معلّقتان بالنجوم اللامعة في سماء الصحراء الصافية، كانت تمرّر أناملها على أهدابه وحاجبيه وتزيل حبّات الرمل العالقة لتدسّها في فمها، اعتاد حركتها هذه ولم يعد يندهش منها، كان مستغرقًا في نشوة حديثها، مأخوذًا بحماستها التي لا تفتر، بولعها ببيتها وإبلها ومشغولاتها وأخيها. حين سكتت فجأة حكّ خدّه في ظاهر يدها: «تكلّمي، أحبّ صوتك»، استلقت بجانبه على الرمل، عقدا أياديهما خلف رأسيهما معلّقين بصريهما بمجموعة الدبّ الأصغر التي تظهر بوضوح في هذا الوقت من العام.

همست القمر: «تكلّم أنت، أنت ما تكاد تحكي».

تنهّد عزان، وبعد هنيهة حكى لها.

حكى لها عن جرح بعيد ولكنّه حيّ: ولده أحمد.

وُلد أحمد ضعيفًا وشاحبًا، توقّعت أمّه موته في كلّ لحظة كما مات بكرها محمّد قبل أن يكمل الشهرين من عمره، ألبسته كلّ أنواع الحروز التي وُصفت لها، وفقد عزان فيه الأمل.

لكنّ أحمد عاش، قاوم جسده الصغير مصير أخيه، وشقّ طريقًا في الحياة، يا لها من حياة! كان مفعمًا بالحيويّة، لا يكاد يأكل أو ينام، لا تراه إلاّ راكضًا أو متحدّثًا.

امتلأ قلب عزان بالأمل، هذا الولد عقبه، سيحمل اسمه وماله ويستند إليه في شيخوخته. تركت أمّه ضفائره تطول خوفًا من الحسد، وظلّت حروزه الجلديّة والفضّيّة مخفيّة تحت ثيابه، حتى بلغ الثامنة ومات.

الموت لم يفلته كما ظنّ والداه، إنّما أمهلِ قلبيهما حتى يثقلا بحبّه، وحينئذ أخذه.

غصّت القمر بريقها: «إيش جرى له؟».

ابتسم عزان ببطء وأغمض عينيه: «ما جرى له هو، جرى للرنج روفر».

تساءلت القمر: «الرنج روفر؟ سيّارة؟».

تحوّلت ابتسامة عزان إلى مجرّد تعبير مرّ: «نعم، سيّارة الرنج روفر الخضراء».

حين داهمت أحمد الحمّى، ولم تعد لطخات الشوران على جسده الملتهب تجدي نفعًا، ذهبت سالمة إلى بيت عمّها الشيخ سعيد، كان قد شاخ ولكن ليس بما يكفي ليرقّ قلبه لتوسّلاتها، توسّلت إليه بذكرى أخيه الشيخ مسعود، أبيها، بالرحم، بالدين، بالنخوة، بالكرم، بالإحسان، بالمشيخة، بكلّ ما يمكن أن تتوسّل به أمّ تنهش طفلها الحمّى.

لكن إجابته لم تتغيّر: «سيّارة الرنج روفر ما تخرج من العوافي إلاّ وأنا فيها».

في اليوم التالي بدأ أحمد يهذي من فرط الحرارة، وذهب عزان مع سالمة إلى بيت عمّها، كلّمه عزان طويلاً، شرح له أنّ حالة ابنه تسوء ولا توجد في العوافي غير سيّارة الشيخ سعيد لحمله إلى مستشفى السعادة في مسكد، لو ركبوا الحمير سيصلون بعد أربعة أو خمسة أيّام ولن يتمكّنوا من إنقاذ الولد، سيدفع عزان كلّ ما يطلبه الشيخ سعيد، وسيعطي السائق أجرته كاملة.

قال الشيخ سعيد: «ما عندي كلام زيادة، الرنج روفر ما تطلع من العوافي، وولدك بيصحّ بلا دخاتر، كلّ الأولاد يحمّوا ويصحّوا».

خرج عزان وسالمة من بيته متجنّبين النظر إلى السيّارة الخضراء الرابضة قرب الباب. حين اشتراها الشيخ سعيد قبل سنتين ودخل بها سائقه إلى العوافي خرج كلّ الناس من بيوتهم لمشاهدتها، أمّه العجوز توكّأت على عبداتها وخرجت لتراها، حين سمعت هدير المحرّك ورأت العجلات السوداء المسرعة رجمتها بالحجارة، صرّحت لأهل العوافي أنّها من عمل الشيطان وكسرت إحدى نوافذها بحصاة ضخمة، الشيخ سعيد أمر العبدات بإدخال أمّه للبيت وهدّدهنّ إن أخرجنها ثانية بالجلد تحت الشمس. من يومها والسيّارة لا تتحرّك إلاّ إذا جلس الشيخ سعيد في كرسيّ الراكب،

وإذا ما ركبت إحدى زوجاته في السيّارة كان يغطّي جميع النوافذ بشراشف.

بكت سالمة طوال الطريق إلى البيت وتركّزت كلّ أحلام عزان في امتلاك سيّارة، أقسم إنّه سيأخذ إذنًا من السلطان كما فعل الشيخ سعيد ويشتري واحدة ولو اضطرّ لبيع مزرعته ميراث أبيه.

لكنّ أحمد لم ينتظر حتى يبرّ أبوه بقسمه، قتلته الحمّى.

نزعوا حروزه وثيابه، فرشوا الدعن وسط الحوش وأحضر الجيران دلاء الماء من الفلج لتغسيله، بخّروه وطيّبوه بالعود، كفّنوه بالأبيض، وحملوا الجنازة إلى المقبرة غرب العوافي.

قال القاضي يوسف لعزان: «ابنك في الجنّة، سيحمل لك الماء البارد في عطش المحشر»، وسكت عزان، لم يقل إنّه تمنّى أن يحمل له ابنه الماء في شيخوخته بالدنيا. تجلّد كما ينبغي له، وصافح المعزّين، صافح كلّ يد امتدّت إليه حتى يد الشيخ سعيد.

تساقط الدمع من عيني القمر، همهمت: «آه، صدق المتوصّف: الوالد شقي».

أخبرها عزان بأنّه منذ دفن أحمد لم يتكلّم عنه قطّ حتى الساعة، التفتت إليه: «حتى مع أمّه؟»، هزّ رأسه: «خاصّة مع أمّه».

في تلك اللحظة كانت سالمة تتسلّل من أحد بيوت العوافي بحذر شديد، لقد خرجت لتوّها من لقاء هامّ للغاية، وأخذت تمشي

عائدة لبيتها قبل أن يعود عزان من رمسته عند البدو.

حاولت أن تتجنّب التفكير في عتمة الغرفة التي كانت فيها، في شروط الاتّفاق الغريب الذي تمّ، لكنّ الجملة الأخيرة التي قالها الرجل عند الباب ظلّت ترنّ في رأسها: «ولا يهمّك يا عروس الفلج»، أفّ لهؤلاء الناس الذين لا ينسون، ابنتها تزوّجت وولدت وابنتها الأخرى مخطوبة وما زال الناس يلقّبونها بهذا اللقب الكريه: «عروس الفلج».

ملأ الغضب صدرها، أخذت تسرع أكثر باتّجاه بيتها.

بعدما أكملت ميا أربعين النفاس، عدت بها إلى جناحنا الصغير في بيت أبي. اعتكفت في البيت وصمَّت أذنيها عن الأقاويل التي انتشرت انتشار النار في الهشيم عن علاقة أبيها ببدويّة فاتنة.

كنت أقود سيّارة أبي المرسيدس البيضاء من مسقط إلى العوافي ومن العوافي إلى مسقط عدّة مرّات في الأسبوع، وطوال الطريق الطويل كنت أفكّر أنّ صفاء سعادتي كثير عليّ. كلّ هذا كثير جدًّا عليّ.

هل أستحقّ هذه السعادة أو لا أستحقّها؟

رجل سعيد يقود سيّارة أبيه إلى بيته، حيث المرأة التي يحبّها، وطفلتهما، وأبوه.

هذا ما كنته، مجرّد رجل سعيد.

شابّ لم يكد يتخطّى العشرين من عمره ولا يفكّر في الحلم بأبعد ممّا هو بين يديه.

بل يخاف ممّا هو بين يديه. في ظلام سيّارة المرسيدس، في ومضات أزرار قمصان لندن الصغيرة، في قطرات الماء المتساقطة

من شعر ميا في الفجر، في لمعة الإبرة في يدها وهي تثبّت الورود القماشيّة في فساتين لندن، في ابتسامات أبي النادرة، في كلّ ذلك، كنت أرى ـ أنا الرجل المحظوظ جدًّا ـ أنّ كلّ هذا كثير عليّ، وأنّي ـ لسبب ما ـ غير جدير بكلّ هذه السعادة.

آه يا ظريفة! كنتِ مخطئة حين ظننت أنّ حبيبًا قد رحل إلى الأبد، لا يا ظريفة، إنّه حرص على بذر نبتته في ابنه، لتكبر وتعذّبك، كما عذّبك حبيب.

لتكن ميّتًا في تراب غريب، أو غريقًا في شطّ العرب، أو حيًّا تُرزق في دبي أو بلوشستان، لتكن حيثما كنت، ليتك رحلت قبل أن تبذر هذه البذرة المتمرّدة!

«نحن أحرار يا أمّي، أحرار بموجب القانون، وسنسمّي أولادنا كما نشاء».

جُنّ ولدك يا ظريفة، لا، ليست الأفعى التي تزوّجها، العاقّة بأمّها من توسوس له، إنّها البذرة، البذرة التي حرص أبوه أن يقذفها فيه قبل أن يختفي.

إيه يا حبيب! كلّما أردتُ أن أنساكَ وشقاءك تكبر بذرتك أمام عينيّ لتفقأهما.

يسمّي التاجر سليمان، الذي ربّاه وآواه، وأدخله المدرسة: الشايب الخرفان!

ألا يرى أنّنا كبرنا في نعمة هذا الشايب؟ لولاه لكنّا اليوم نتسوّل في الطريق أو ننادي على المارّة من أجل لقمة عيش كما يفعل منين.

«أحرار. . أحرار».

هذا الولد سنجر يريد أن يعقّكِ ويهاجر كما تعقّ زوجته الأفعى أمّها، وتتركها لإحسان الجارات.

مسكينة يا مسعودة!

نعم كانت تغار منك يا ظريفة حين لا تضطرّين مثلها للخروج منذ الفجر إلى الصحراء للاحتطاب، كلّ شغلك داخل البيت، وعندما تخرجين لاستقاء الماء من الفلج، فإنّك تستغلّين الفرصة لزيارة من تحبّين من الجارات، ولكن هي المسكينة، انحنى ظهرها من ثقل الحطب على ظهرها سنة بعد سنة.

صبرت على الشقاء، وعلى زوجها زيد، الذي ما يفرغ من امرأة إلاّ ليذهب لأخرى، ماذا تقولين يا ظريفة؟ أستغفر الله، لا يحقّ للأموات غير الرحمة، الله يرحمه، كان أيضًا قريبي، ويقول المتوصّف: «أنفك منك ولو خاس»، الله يرحمه.

وهذي بنتها شنّة، عيونها مثل النمر، لكن من تلومين يا ظريفة؟ أنت أصررتِ على سنجر أن يتزوّجها، كلّه من شكّكِ وخوفكِ عليه، ارتحتِ الآن؟ يريد يهاجر، ويقول: «تعالي معنا»، آتي معهم إلى أين؟ نترك أرضنا وبلادنا وبلاد أهلنا وأجدادنا لأرض غريبة ما

نعرف ناسها ولا أوّلها من آخرها؟ والتاجر سليمان من سيهتمّ به ويخبز له؟ أخته المتكبّرة؟ يكفي ما عملته في فاطمة المسكينة أمّ عبد الله، الله يرحمها، الناس ما ترحم.

كيف تتركين العوافي يا ظريفة، وأنت لا تكادين تعرفين غيرها من بلاد الله؟

كلّه منك يا حبيب، كلّه منك، ومن كلامك الذي كنت تتردّده أمام سنجر وهو ما يزال في قماطه.

ضحكتك الوحشيّة في قلب الليل ما زالت تشرخ فؤادي: «بلادك وبلاد جدودك؟ أيّ جدود يا ظريفة؟ جدودك ليسوا من هنا، جدودك سود مثلك، من أفريقيا، من البلد التي سرقوكم منها وباعوكم».

عبثًا يا ظريفة تشرحين لهذا الرجل أنّ أحدًا لم يسرقك، أنت وُلدت عبدة لأنّ أمّك كانت عبدة وهكذا، العبوديّة تتبع الأمّ من جهة النسب، ولم يسرقك أحد، والعوافي بلدك، وناسها ناسك.

لكنّ حبيبًا يا ظريفة كان يبصق في وجهك حين تقولين له هذا الكلام، لا يريد أن ينسى الرحلة المرعبة التي أنهت حياته اللاهية الوادعة في مكران، حيث كان الصبي الثاني لأمّه ذات الخمسة صبيان.

إنّه يتذكّر كلّ شيء: العصابات المحلّيّة التي أغارت على قريتهم طمعًا في المال، أو تصفية لثارات قديمة، خليط التجّار

البلوش والعرب الذين اشتروهم على الساحل، المراكب القذرة الممتلئة التي شحنوهم فيها، داء الرمد الذي استشرى في المركب، صراخ أمّه على أطفالها الآخرين الذين شُحنوا في مراكب أخرى، والرضيع الذي مات على صدرها بالجدري فألقاه التجّار في البحر.

«نحن أحرار، سرقونا وباعونا» يصرخ في قلب الليل، في أوّل الفجر، في حفلات الزار: «أحرار.. ظلمونا».

بيع وأمّه في ساحل الباطنة، اشتراه تجّار العبيد، وباعوهما إلى تجّار آخرين، حتى اشتراهما أخيرًا التاجر سليمان. بكت أمّه لسنوات طوال، تعاطف الناس في العوافي مع قصّتها، لكنّ أحدًا لم يستطع أن يهتدي لمكان أبنائها الآخرين، أمّا إرجاعها لبلادها فكان ضربًا من المستحيلات. قطّاع الطرق والقراصنة سيبيعونها مرّة أخرى، بكلّ تأكيد.

أمسك عزان وجه نجيّة بكلتا يديه، ردّد لها أبيات مجنون ليلى:

أنيري مكانَ البدرِ إن أفلَ البدرُ وقومي مقامَ الشمسِ ما استأخر الفجرُ

ففيك من الشمسِ المنيرةِ ضوؤها وليس لها منكِ التبسُّمُ والثغرُ

لك الشرفة اللألاء والبدرُ طالعٌ وليس لها منك الترائبُ والنحرُ

ومن أين للشمسِ المنيرةِ بالضحى بمكحولةِ العينين في طَرْفها فترُ

وأنّى لها من دلّ ليلى إذا انثنتْ بعينيْ مهاةِ الرملِ قد مسَّها الذعرُ

فتضحك نجيّة: مهاة الرمل؟ يداعب عزان وجهها: هي أجمل أنواع المها، ومجنون ليلى يؤكّد لك يا القمر أنّ جمالك هبة الخالق، وأنّك أكثر نورًا من الشمس والقمر، وأنّ عينيك أجمل من عيون المها.

جمالها يوجعه، يشعر بألم غامض ينفجر في صدره من فرط وضاءتها، فلا يملك إلاّ أن يردّد لها الأشعار. من قبل أن تعرفه، كانت أسماء مثل المتنبّي وابن الرومي والبحتري ومجنون ليلى خيالات شاحبة في الكتب، خيالات بلا حياة تنتمي لعالم المدرسة البغيض، ولكتب المحفوظات المملّة، ولكن عزان بثّ في هذه

الخيالات الميتة الحياة، وأصبحت نجيّة تحسّ أَرَق المتنبّي وطموحاته وإحباطاته كأنّها طموحاتها وإحباطاتها هي نفسها، تخيّلت البحتري جالسًا على يمين المتوكّل ينظران للبحيرة التي خلّدها في شعره، وراقتها كثيرًا صورة امرئ القيس يطارده الليل الذي أرخى سدوله كموج البحر. أصبحت تنهي سهراتها الطويلة مع عزان بعبارة امرئ القيس: «اليوم خمر وغدًا أمر»، لتشير إلى المهمّات الثقيلة التي تنتظرها في النهار، تعاطفت قليلاً مع عمى المعرّي ولكنّها لم تفهم شعره ولم تحبّ فكرة أن يكون أديم الأرض من بقايا الأجساد. كانت نجيّة مولعة بالحياة، راقتها الأبيات الغزليّة والحماسيّة، ولم تنسجم مع شعر التأمّل والزهد والتصوّف، خاصّة أنّ عزان يُصاب بحالة من الوجوم بعدما يتذكّر المرحوم القاضي يوسف الذي كان يتذاكر معه هذا الشعر، ومنذ ذلك اليوم الذي أُصيب فيه عزان بحزن عميق بعدما أخذ يردّد أبيات الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي:

وما ليَ من سعي وما ليَ من رضا ... سوى نسبةٍ منه بها قد تكرمَا
ولا قدرة لي أن أريدَ مُرادَه ... فكيف مرادي إن أُرِدْ كنتُ أظلما
مرادي لي أن لا أرى لي إرادةً ... وتلك له عينُ الإرادةِ في العَمى

أصبحت نجيّة تتحاشى أكثر فأكثر حديث الشعر، وتحاول أن تقصره على خيالاتها عن الشعراء الذين يحبّون الحياة أو الذين عشقوا النساء الجميلات اللواتي كانت ترى نفسها فيهنّ جميعًا، خصوصًا ليلى صاحبة المجنون.

عمّتي مفرطة الطول، كنت وأنا صغير أتخيّلها كالمئذنة، كان يستفزّني بشكل خفي أنّها أطول من ظريفة، وإن كانت لا تضارعها ضخامة، ممّا يمنحني شيئًا من الراحة، فصدر ظريفة العامر يمكّنني من التمرّغ فيه، والنوم، ويداها إذا احتضنتني تغطّيانني بالكامل، لكن عمّتي لم يكن لها أيّ صدر، ويدها النحيلة البيضاء كانت مزيّنة بعدّة خواتم ذهبيّة، ويحيط بكلا معصميها نصف دستة من الأساور الغليظة المشغولة، التي تصدر رنّة مميّزة كلّما رفعت يدها لتشير بأصابعها بعدائيّة في وجه شخص ما، لم أكن أتصوّر أنّ يديها يمكنهما فعل شيء آخر غير الإشارة الآمرة في وجوه الآخرين، ولم أكن أفهم سرّ وجودها الدائم في بيت أبي على الرّغم من زواجها في بلد آخر من أحد أبناء أخوالها. كانت تحتقر كلّ الناس، وتعاملهم بأدب ظاهر، الأدب الذي يشفّ عن الاستخفاف العميق بهم، وكانت لا تتكلّم كثيرًا، تأتي الجارات أثناء وجودها في بيتنا، تصافحهنّ بأطراف أصابعها المحنّاة دائمًا بحنّاء أحمر قاتم، وتدعوهنّ للجلوس وهي تغمز لظريفة لتسرع بالقهوة، تجلس الجارات، يتبادلن مع بعضهنّ البعض الأحاديث المتقطّعة كأنّ

حقيقة وجودها الصارم تمنعهنّ من الاسترسال، وبمجرّد أن ينتهين من تناول التمر والقهوة، تغيّر عمّتي جلستها فينصرفن على الفور، كأنّهنّ ينفضن واجب الزيارة عن أكتافهنّ، وكان من المتعارف عليه ضمنًا أنّه ليس بوسعهنّ اصطحاب أطفالهنّ، فعمّتي تحتقر الأطفال أكثر من أيّ شيء آخر.

كانت تقاطيع وجهها الحادّة المنمنمة تشكّل تناقضًا صارخًا مع تقاطيع وجه ظريفة المفلطحة الكبيرة، وكانت الوحيدة التي تعامل ظريفة كأيّ عبدة أخرى، ولا تعترف بمكانتها الضمنيّة كمدبّرة لمنزل أبي، وسريّة سابقة له، وكانت تتعمّد حتى في فترات مرض أبي أن تجلس قبالة غرفته، فقط ليمنع وجودها ظريفة من التسلّل إليه.

كانت وأبي يتبادلان الاحترام المفرط، الواضح حدّ الحرج، وفيما عدا التحيّات الطويلة بينهما التي تسير على النسق نفسه كلّ مرّة، لم يكونا يتبادلان أيّ حديث. حين كبرت فقط فهمت كم كان احترامهما الظاهر يحمل من الاحتقار العميق والكراهية. وإذا كانت تقود حربًا صامتة ضدّ ظريفة، فإنّ وجود أبي وحقيقة علاقته بظريفة كانا يمكّنانها من المجاهرة بالعداء لعمّتي، أمامنا، نحن الصغار، وأمام بقيّة العبيد والعبدات، وأمام كلّ أهل العوافي، وكان انتقاد ظريفة لعمّتي يركّز غالبًا على كونها غير محظيّة عند الرجال كونها تطلّقت مرّتين من أخوين، وعلى عقمها، وعودها الجافّ، لكنّ ظريفة لم تستطع إخفاء خوفها من عمّتي، وبمجرّد أن توفّي أبي غادرت البيت الكبير ولحقت بابنها سنجر في الكويت.

بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيّام إلى مسقط مع صهرها المنتظر وأمّه، رجعت سالمة إلى العوافي محمّلة بجهاز ابنتها أسماء الذي اشترته كاملاً من مطرح، لم تكن راضية عمّا اشترته، قالت لزوجة المؤذّن: «هناك أشياء أجمل كانت أسماء جديرة بها، لكنّ أباها عزان ـ الله يسامحه ـ رفض أن يشترط على الخطيب أيّ مهر، قال بغضب: «وهل بنتي سلعة حتى أبيعها؟ مهرها مهر اللّي مثلها»، وها هو خطيبها لم يدفع أكثر من ألفين ريال ما دام لم يُطالب بأكثر، وأمّه ساكتة طول الرحلة، يبدو أنّ الغربة أنستها التقاليد».

بسطت سالمة المشتريات أمامهنّ: أسماء وخولة وزوجة المؤذّن وأرملة القاضي يوسف وأمّ ناصر وثلاث من الجارات، تسابقت الأيادي إلى تقليب الأقمشة الحريريّة اللامعة التي ستحوّلها ميا لاحقًا إلى دشاديش وسراويل مطرّزة للعروس، وبادرت سالمة باستعراض لحافات الرأس الهفهافة الخضراء المطرّزة حوافّها بورود ذهبيّة، وتلك المنتهية بشراشب ملوّنة.

لم تتمالك خولة نفسها من تجربة الصنادل اللامعة بكعوبها العالية، فرمقتها سالمة بنظرة محذّرة. بعد أن انتهت التعليقات حول

الأقمشة، فتحت سالمة صندوق العطور: زجاجتين من العطر الفرنسي اشترتهما سالمة بناء على رغبة أمّ الخطيب وإن كانت في سرّها تفضّل أن تشتري بثمنهما المرتفع زجاجة صغيرة إضافيّة من دهن العود الأصلي بالإضافة إلى التي اشترتها بالفعل، ضحكت زوجة المؤذّن: «أنت مهووسة بدهن العود يا سالمة، واحدة تكفي للعروس!».

قالت سالمة بجدِّيّة: «كيف عروس بلا دهن العود؟ شوفي البخّور، اشتريت لها نوعين: حطب العود الأصلي الكمبودي وبخّور صلالة، يا خولة، سخّني جمر بنجرّب البخّور».

قفزت خولة باتّجاه المطبخ، تمتمت أسماء: «لكنّ البخّور يخنقني يا أمّي، لو اشتريت لي عطور زيادة بدلاً منه».

قالت سالمة وهي تُخرج صندوق الذهب: «اسكتي أنت ما تفهمي شيء، حدّ عروس تعرس بلا بخّور؟ هذي فضيحة».

التمعت أعين النساء وهنّ يتأمّلن المصوغات الذهبيّة: سلسلة غليظة، وعقد بحلقات عدّة، وخواتم بفصوص ملوّنة، وخاتم الألماس هديّة من أمّ العريس، وأساور رفيعة، وأخرى غليظة بحوافّ مدبّبة.

قالت إحدى الجارات: «على أيّامنا كانت المصوغات فضّة، لكن الحمد لله الدهر تغيّر».

قالت الجارة الأخرى: «صحيح كانت فضّة، لكن كان فيها خلاخيل وعاضد وحروف».

تضايقت سالمة: «تعرفن بنات هذي الأيّام ما يحبّن يلبسن خلاخيل وعاضد..».

قالت أسماء: «طبعًا، ما أريد ألبس أشياء تتخرخش في رجولي».

وأخذت تقلّب حليّها بفضول، وحين رأت الأساور الذهبيّة ذات الحوافّ الناتئة المدبّبة ضمن الذهب الذي اشترته أمّها لجهازها استغرقت في الضحك، تذكّرت فورًا حكاية أرملة القاضي يوسف مع هذا النوع من الأساور التقليديّة. كانت الأساور وقتها من فضّة أو مغطّاة بقشرة رقيقة من الذهب، مريم، أرملة القاضي يوسف حكت لأسماء الحكاية بنفسها: «والله يا بنتي كان عمري ما يزيد عن أربع عشرة سنة، جاءتني أمّي الله يرحمها وقالت لي: قومي يا مريم تسبّحي والبسي هذي الملابس الجديدة وهذي الأساور وحرز الفضّة، قلت لها: ليش ماه؟ قالت: اليوم عرسك على القاضي يوسف. وبكيت حتى انتفخت عيوني وما أحد التفت لي، وفي المساء جاءت الحريم وغنّين وزفّوني للقاضي، وعند الباب كسرت أمّي البيض على رجلي وهمست لي: اسمعي يا مريم إيّاك أن يجدك الرجل بطّيخة جاهزة، دافعي عن نفسك وارفعي راسنا، وقاتليه بهذي الأساور اللي في إيديك وضاربيه، لا تكوني بطّيخة جاهزة. ووالله يا بنتي يا أسماء تمّيت شهر كامل أضاربه وأخمشه كما أوصتني أمّي، وهو يقول لي: «يا مريم، يا مريومة، يا مريومتي إيش تحبّي أناديك؟» وأنا لا أخلع الأساور من يدي،

وأهوي بها على وجهه كلّما اقترب منّي. الله يرحمك يا أبو عبد الرحمن كان راعي علم ويقرأ في كتب الدين والعلم والفهم ويلاطفني مسكين: «يا مريومة أنا بسّ أريد أكلّمك.. ما لك تهاجميني؟ اسمعيني وكلّميني ما داعي للصراخ والخمش كلّ يوم.. إذا كنت كارهتيني ما ألزمك عليّ.. ما يجوز لي أغصبك.. أهلك غصبوك يا مريم؟.. أنت كارهتيني يا مريومة؟»، والله يا بنتي يا أسماء ما كنت كارهتيه ولا شيء، كان أحسن من أبوي ومن إخوتي ومن كلّ الناس، كان راعي علم ودين الله يغفر له ويوسّع قبره مثلما وسّع دنياي، لكن يا بنتي كنت أسمع كلام أمّي وما أكون بطّيخة جاهزة». تضحك أسماء: «وبعد الشهر يا أمّ عبد الرحمن؟»، تبتسم مريم وتلوّح بيدها: «بعد الشهر يا بنتي يا أسماء صار المكتوب.. قلت لك هو راعي فهم ولطافة، وأنا بنت صغيرة، ولازم تمشي الدنيا... مكتوب لنا هذي البذور: عبد الرحمن وإخوته، الله يرحم أبوهم، صبر عليّ وأنا كلّ يومين أحرن عليه وأروح بيت أهلي بلا سبب، كان يقول لي: «أنت زوجتي يا مريومة دنيا وآخرة، وأنت عزيزة عليّ مثلما كانت عائشة رضي الله عنها عزيزة عند النبي عليه الصلاة والسلام»، ومات صغير يا عيني، دايمًا الناس الزينين يا بنتي يا أسماء ما يبقوا في الدنيا، بسرعة يروحوا عنها، والناس ما يسكتوا عنّي: «أنت صغيرة يا مريم تزوّجي والحيَ أبقى من الميّت»، الله، لا، قال، أتزوّج بعد القاضي أبو عبد الرحمن؟ كيف وهو قال لي «أنت زوجتي دنيا وآخرة يا مريومة، دنيا وآخرة».

جاءت خولة بالجمر متّقدًا، وأخذت سالمة تنثر فوقه البخّور وتبخّر الجارات وهنّ يتضاحكن، إذا طلع البخّور من أكمامهنّ فمعنى ذلك أنّ المبخّرة، سالمة، تحبّهنّ، وإذا احتبس ولم يطلع فمعناه أنّها لا تحبّهنّ، أخذن يتصايحن: «هاه، طلع البخّور من أكمام زوجة المؤذّن بسّ.. ما لنا في الطيّب نصيب..».

ثم انشغلت سالمة بفرد أغطية الوسائد المطرّزة أمام أعين الجارات، وقياس أطوال السجّادتين اللتين اشترتهما بعد جدال طويل مع صاحب المحلّ الإيراني. مالت خولة على أسماء وهمست: «جهاز عروس بلا قمصان نوم ولا مكياج، يا عيني يا أختي»، غمزتها أسماء، لن تعدما وسيلة لشراء هذه الأشياء قبل العرس!

شرحت سالمة للجارات تفاصيل المندوس الذي صمّمته عند أكبر بائع مناديس في مطرح: حجمه، ونقوشه، ومقابضه الذهبيّة اللون. قاطعتها خولة: «لكنّ البيوت الآن فيها غرف نوم بسرير ودولاب وتسريحة». قالت زوجة المؤذّن: «أستغفر الله، كلّ شيء ما عاجبهن بنات هذي الأيّام، يا بنتي عروس بلا مندوس ما عروس، والمندوس يحفظ ريحة البخّور داخله سنين».

قبل أن ينفضّ جمع الجارات أعطت سالمة لكلّ واحدة منهنّ لحافًا من المئة لحاف التي اشترتها لتوزّعها على نساء العوافي: الجارات والفقيرات، القريبات والبعيدات، السيّدات والعبدات.

بعدما ضربت سالمًا فاجأني الإحساس المرعب بأنّي أصبحت أشبه أبي. بعد يومين قالت لي ميا إنّ سالمًا لم يكن سكرانَ بل مصدومًا. كان سهرانَ مع أصدقائه في أحد المقاهي بالقرم، الموسيقى عالية، والروّاد يتناقصون.

كان يشرب عصير ليمون بالنعناع حين لاحظ الكفّ التي استندت فجأة على طاولته. التقطت عيناه الأظافر المصبوغة بطلاء فضّي لامع، وحين رفع رأسه كان شابّ مسبل الجفنين بمواجهته. همس الشابّ الذي كان يرتدي قميصًا أسود من فيرساتشي، وبنطلون جنز أسود من أرماني: «نظرة، قتلتني نظرة».

تشاغل سالم بعصير الليمون في يديه، لكنّه بدأ يرتجف والشابّ ينحني عليه ويضع أمامه بطاقة أنيقة من ورق مشغول بها رقم بلا اسم.

تجاهله سالم، أين اختفى أصدقاؤه؟ هل يلعبون الورق على طاولة أخرى؟

بقي الشابّ واقفًا قربه، يتنهّد بحرقة، ويعيد وضع بطاقته على الطاولة.

أخيرًا قال سالم: «اذهب.. اذهب الآن حالاً».

همس الشابّ: «عارف.. ما أستاهل أظافر رجليك.. عارف.. ما أستاهل نظرة..».

ازداد انحناؤه على سالم: «الله الله يا حبيبي، تفكّر في ناري وترحمني..».

وحين هرع سالم لسيّارته، كانت سيّارة الشابّ البورش خلفه في شوارع مسقط، ضلّله في شارع جانبي ورجع إلى البيت.

كانت الساعة تشير للثانية صباحًا، كنت أنتظره في الصالة، ضربته والغضب يخنق صوتي: «سهران للآن؟.. تخالفني أنا؟».

في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٦ م كانت عنكبوتة الملقّبة بالخيزران تحتطب في الصحراء حين فاجأها المخاض، وفي اللحظة التي ولدت فيها طفلتها مستخدمة سكّينًا صدئة في فصل حياتيهما، كان المجتمعون في جنيف يوقّعون على الاتفاقيّة الخاصّة بالرقّ التي تنصّ على إبطال الرقّ وتجريم تجارته، في ذلك اليوم أيضًا أكملت عنكبوتة سنواتها الخمس عشرة، ولكنّها بكلّ تأكيد لم تكن تعرف ذلك، كما لن تعرف قطّ عن بلاد اسمها جنيف.

شقّت عنكبوتة لحاف رأسها المترب، لفّت المولودة في بعضه واحتشت بالباقي، دخلت حاسرة حافية إلى العوافي، وفي بيت الشيخ سعيد ـ الذي زاد عدد إمائه واحدة للتوّ ـ تلقّتها النساء ونقلنها للداخل، اضطجعت عنكبوتة على حصير الخوص وهي تشاهد تحنيك ابنتها بتمرة، وحين وضعوها بجانبها انفجرت في البكاء وهي ترى جسمها الصغير المجعّد ملفوفًا بشطر لحافها، فقد تذكّرت أنّه اللحاف الوحيد لها الذي لم تثقبه أطراف الحطب، ورغم أنّه كان أبيض تمامًا إذ لم يُصبغ بالنيلة الزرقاء كلحافها الآخر

المثقّب فإنّه كان متماسك النسج، ولولا أنّه مغبرّ اللون لقالت إنّه جديد، وها هي قد خسرته.

بعد أسبوع أعلن الشيخ إنّ المولودة اسمها ظريفة، ولكنّه لن يتمكّن لسوء الأحوال بعد فساد محصول التمر من ذبح أيّ عقيقة عنها.

بعد ستّ عشرة سنة سيبيعها إلى التاجر سليمان، لتصبح عبدته وسريّته وحبيبته، والمرأة الوحيدة التي اقتربت من داخله، وليصبح الرجل الوحيد الذي ستحبّه وتهابه حتى تموت. الرجل الذي سترى فيه المخلّص من إهانات أولاد الشيخ سعيد، والحبيب الذي عرّفها على ملاذّ الجسد، ومنبع لعبة القسوة والغيرة، وأخيرًا الشيخ الذي عاد إلى حضنها ليموت فيه.

في البداية كان زايد يعود للعوافي كلّ جمعة، ويوزّع الفواكه حتى على جيرانه، كان لا يكاد يخلع زيّه العسكري حتى في جلسات العود مع سويد، وحين لم يصبّ له أحد القهوة في عزاء زيد، بل تركوه يصبّ لنفسه، عرف أنّ أهل العوافي لن يروه أبدًا الضابط الناجح، سيظلّ في نظرهم زايد بن منين المسكين الذي يستجدي الناس، هؤلاء الناس يؤمنون بالماضي وليس بالمستقبل. . انسحب زايد تدريجيًا، أحضر لأبيه خادمة هنديّة وقَلّت زياراته للعوافي حتى اقتصرت على الأعياد والمناسبات الكبيرة.

سمعنا فجأة، بعد مقتل والده بسنوات، أنّه تزوّج، لم يرجع إلى العوافي قطّ، زُفّت له عروسه، ابنة حفيظة الثانية، أجمل بناتها، إلى فندق الشيراتون في مسقط حيث أُقيم العرس الذي لم يحضره من سكّان العوافي سوى العروس وأختيها وأمّها حفيظة.

كانت حفيظة لم تتعدّ بعد السابعة عشرة حين حبلت للمرّة الأولى، جذبتها أمّها سعادة من شعرها وانهالت عليها ضربًا، لكنّ الجارات غمزنها بقولهنّ: «ما غريبة، الثوب ثوبها، من قبلها عمّتها سايرة على الدرب»، فكفَّت أمّها عنها، وحين وضعت المولودة

الأشدّ سمرة منها ومن أمّها، سألتها سعادة مرّة أخرى: «من أبو هذه الغبنة؟» فقالت حفيظة مرة أخرى: «قلت لك يا أمّي، إذا ما كان زعتر فإنّه مرهون أو حبيب»، فهزّت أمّها رأسها وتركتها، وبعد أن أنهت حفيظة أربعين النفاس حكم عليها القاضي يوسف بالجلد مائة جلدة، ألبستها أمّها شوالاً فارغًا من الخيش وما قدرت على جمعه وحشره فيها من القمصان القديمة ولفّتها فوق ذلك بعدّة شراشف حتى لا تحسّ أثر الجلد على ظهرها. تسلّلتُ مع الصبية وسط الناس المجتمعين ليشهدوا تنفيذ الحدّ، لكن لم ينقض أكثر من سنتين حتى وضعت حفيظة ابنتها الثانية شديدة البياض هذه المرّة، كان الحكم قد تغيّر، وأصبح القاضي يوسف قاضيًا لوالي السلطان بعد أن كان يعدّ نفسه قاضيًا للإمام على رغم هزيمة الإمام وخروجه من عمان، فلم ينفّذ عليها حدّ الجلد، واقترح بعض الكبار إرسالها للسجن لكنّ أحدًا لم يهتمّ بتنفيذ الاقتراح. تهامس الناس أنّ البنت الجديدة نسخة من ابن الشيخ سعيد الأصغر وأنّها «مقعيّة أبوها في حصاة»[1]، لكنّ حفيظة للمرّة الثانية لم تكن أيضًا متأكّدة من هو أبو المولودة بالضبط، ومن ذلك الوقت اكتسبت لقبها الشهير: «باص الشعب»، وبعد ثلاث سنين أخرى ولدت ابنتها الثالثة التي تشبهها وكانت هذه الابنة الأخيرة، إذ اهتدت حفيظة بعدها إلى حبوب منع الحمل.

هل نمت؟ ما هذا العطش؟ كانت ظريفة تحذّرني من النوم

(١) مثل يُضرب للدلالة على شدّة الشبه بين الأب وابنه أو ابنته.

عطشان، من يَنَمْ عطشان تغادره روحه لتشرب، ولذا كنت أشرب كوبين أو ثلاثة خوف أن تغادرني روحي ولا ترجع إليّ، فذلك الرجل الذي نام عطشان غادرته روحه لتشرب من الجحلة، لكنّ غطاء الجحلة سدّ فوهتها فاحتبست روحه ولم تستطع الرجوع إليه، وحين كان الناس يهمّون بدفنه في الصباح رفع أحدهم غطاء الجحلة ليشرب فعادت روح الرجل العطشان إليه.

بعدما سرقت بندقيّة أبي من أجل العقعق الذي لم أذقه، نكّسني أبي مربوطًا في البئر عقابًا لي، ونمت شديد العطش، بعد كوابيس كثيرة، رضيت مسعودة أخيرًا أن تحكي عن أمّي:

يا ولدي يا عبد الله، يقول المتوصّف: «النهار حال حدّ، والليل حال حدّ»[١] وأمّك، الله يغمّد روحها الجنّة، مشت في الليل، رمت بحصاة، ما تعرف أيش بتصيب، صابت رأس ولد الجنّيّة. الجنّيّة خادمة شيوخ الجنّ، جاءت لأمّك وقالت لها: «اقلعي شجرة الريحان في الحوش، رائحتها تجلب الأفاعي، باكر ولدك بيكبر وبيلعب عندها وبتلدغه أفعى»، وأمّك، الله يغمّد روحها الجنّة، ظنّت الجنّيّة امرأة مسكينة وصدّقتها.

في الفجر قطعت شجرة الريحان، وغضب شيخ الجنّ اللّي ساكنين تحت الشجرة، وطاحت المسكينة مريضة، يومين ثلاثة، وماتت، الله يغمّد روحها الجنّة».

---

(١) النهار للإنس والليل للجنّ.

حين كبرت أكثر، ورفضت إغواء شنّة في المزرعة، لمّت ثيابها عليها وصرخت: «أمّك ما ميّتة، أمّك حيّة، سحروها وأخذوها، خلّوا مكانها حطبة، وأبوك دفن الحطبة، وأمّك صارت مغيّبة، الساحر غيّب عقلها وخلاّها خادمته، أبوي شافها في الليل في الضاحية لابسة أبيض».

حين انتهت سالمة من ترتيب جهاز ابنتها أسماء أغلقت الباب على نفسها وأجهشت بالبكاء، أحسّت فجأة أنّها تشتاق لأبيها وأمّها.

كانت سالمة قد أنجبت خولة، صغرى بناتها، حين أسلمت أمّها الروح، ولكنّها في الحقيقة كانت قد ماتت قبل ذلك بزمن طويل، بعشر سنوات على الأقلّ، حين جاء من يخبرها أنّ ابنها الوحيد معاذًا قد استشهد في حرب الجبل الأخضر دون أن تتمكّن من وداعه.

حين هرب معاذ من بيت عمّه الشيخ سعيد وهو لمّا يكمل السادسة عشرة من عمره بعد، جُنّ جنون عمّه، لقد صدق حدسه في الولد، سيشقّ عصا الطاعة ويلتحق بالقبائل المتحالفة مع الإمام، ضاربًا بحلف عمّه مع القبائل الأخرى عرض الحائط. أعلن الشيخ سعيد في كلّ مجلس براءته من ابن أخيه، ردّد أمام كلّ من له أذنان: «هل يظنّ الأحمق أنّ احتماءه في الجبل الأخضر مع الإمام وجماعته سينقذهم من طايرات الإنجليز؟ الإنجليز معهم الطايرات والسلاح وهم أيش معهم؟».

كانت معاهدة السيب المبرمة عام ١٩٢٠ قد قسمت عمان إلى عمان الداخل وتحكمها الإمامة، وحكومة مسقط وبعض المناطق الساحليّة التابعة لها ويحكمها السلطان المدعوم بالإنجليز، وقد ظلّت الاتفاقيّة محترمة زمنًا حتى وقّع السلطان اتّفاقيّة مع شركة بريطانيّة للتنقيب عن النفط في منطقة تابعة للإمامة في صحراء فهود، فأنشأت الشركة جيشًا لحمايتها سُمّي باسم «مشاة مسقط وعمان»، وهكذا أدّت المطامع الاستعماريّة إلى اشتعال فتيل الحرب حين دخل الجيش إلى عبري، ثم قام بقصف المناطق التابعة لدولة الإمامة في نزوى ونخل، وفي عام ١٩٥٥ اضطرّ الإمام غالب الهنائي وأتباعه من محاربي القبائل المتحالفة معه إلى الاعتصام بالجبل الأخضر، وحين علم معاذ أنّ الأمور قد وصلت لهذا الحدّ تسلّل من العوافي والتحق بالمجاهدين في الجبل حيث ظلّ هناك حتى أواخر عام ١٩٥٩، متعرّضًا مع رفاقه إلى قصف السلاح الجوّي الملكي البريطاني، في حين لم يمتلكوا إلاّ أسلحتهم التقليديّة. أخذوا يستخدمون استراتيجيّة حرب العصابات وقاموا بسدّ المداخل والمخارج إلى الجبل، وكانت مهمّة معاذ إشعال النار في المناطق الخالية لإيهام جنود الإنجليز بوجود مجاهدين فيها لاستنزاف ذخيرتهم، وفي إحدى الليالي داس على قنبلة صغيرة وهو عائد من مهمّته، ففجّرته إلى شظايا وضمّته إلى أكثر من ألفي شهيد قُتلوا في حرب الجبل الأخضر، ولم يبق من جثمانه شيء ليرجع إلى أمّه.

لمّا جاءها نعي معاذ استسلمت بهدوء وأقامت عزاء حسب

إمكاناتها المتواضعة بعد رفض عمّه مجرّد تقبّل التعزية به، وماتت، دون أن يشعر بها أحد، ماتت كلّ يوم وكلّ ليلة، عشر سنوات، تتنفّس وتأكل وتشرب وهي ميتة، تكلّم الناس وتمشي بينهم وهي ميتة، حتى أسلم جسدها روحه الميتة أخيرًا وكفّ عن التظاهر بالحياة.

رأسي يغوص في ماء، هذا الصداع يداهمني فجأة في كلّ رحلة طيران، أشعر بتشويش، وكلّ شيء أمامي يغوص في ماء، أحسّني مقلوبًا ومنكّسًا في بئر، حبال الليف الغليظة حولي، رأسي يرتطم بحوافّ البئر المظلمة، وكلّ ما يرعبني أن تتفلّت الحبال فأهوي إلى القاع. لماذا سرقت البندقيّة؟ لماذا اشتهيت العقعق؟ تسيل من رأسي المقلوب المكعّبات البلاستيكيّة الملوّنة التي يلهو بها محمّد، مكعّبات متراصّة بلا فراغات، ولا يهدأ صراخه إن تغيّر نظامها مكعّبًا واحدًا، الصراخ، الصراخ، هذا ما فعلته امرأة عمّي إسحاق حين دخلت حمّام بيتهم في وادي عدي لتتوضّأ لصلاة الفجر، ووجدت ابنها مروان الطاهر مقطوع الشرايين بخنجر أبيه، الصراخ، هذا ما فعلته ظريفة حين أسلم أبي الروح في مستشفى النهضة، هذا ما لم أفعله قطّ إلاّ منكّسًا في بئر.

أراني طفلاً صغيرًا، أنا صبيّ متنكّر في خنجر رجل، ومصر متقن، ونعل جديد، ويد أبي تأخذني إلى مكان بعيد، آه إلى عبري، نلبّي دعوة شيخ هناك، معنا حبيب قبل أن يهرب، وسويد والبدوي صاحب الناقتين اللتين حملتانا. لم يكن معنا عود سويد،

لم يكن قد حصل عليه بعد؟ لم تكن الجنّيّة قد أحبّته وعرضت أن تلبّي له رغبة وحيدة، فكانت العود. آه، العود الساحر الذي لامست أنّاته حزن طفولتي وعزلة مراهقتي. العود هديّة الجنّيّة، ولذا لا يستطيع سويد العزف على سواه. لا، لم يكن هناك عود، كانت صرّة بها عوال وبصل، وصندوق تمر، وقرب ماء، ورمال كثيرة، وغناء. حبيب كان يغنّي، بلغة غريبة، هل كانت البلوشيّة؟ كان غناؤه شجيًّا وصوته يختنق بالبكاء عند بعض المقاطع التي يكرّرها. قبل أن يهرب قال لظريفة إنّ الأغاني هي الشيء الوحيد الذي ظلّ عالقًا بذاكرته من لغته، ولذا كان يغنّي أو يغضب.

وأنا صبي متنكّر في ملابس الكبار الرسميّة، أمثّل النسل الوحيد لأبي أمام شيوخ عبري، وفي السوق أوشكت أن أعود طفلاً أمام أكوام قشاطات النارجيل المصفوفة بسخاء على المصاطب. عدت رجلاً في الغداء، جلست بالطريقة التي يجلس بها الكبار في المجالس، جالسًا على إحدى ساقيّ وثانيًا الأخرى، حريصًا على عدم تغيير جلستي مهما نمّلت قدمي كي أبدو صلبًا كالرجال، مددت يدي إلى صينيّة الأرزّ الضخمة ولم أكد أرجع بشيء إلى فمي، وبعد عشر لقمات، مددتها أخيرًا إلى اللحم المتراكم فوق الأرزّ، وعدت بقطعة صغيرة حرصت على أن تكون في مرمى نظر أبي، وحين رُفعت الصينيّة كنت جائعًا وسعيدًا برضا أبي الذي نبّهني من قبل أنّ عائلة الشيخ وجيرانه وعبيده ينتظرون نصيبهم من الصينيّة نفسها التي قُدّمت إلينا. رأسي لم يكن مقلوبًا، لم يكن يغوص في ماء، لم يكن يبحث عن مساحة أرض من مسقط إلى

السيب ليبني عليها بيت أحلام زوجتي. القطعة التي أعجبتها لم نتمكّن من الحصول على موافقة عليها، رفضت البلديّة رفضًا قاطعًا، لأنّ قطعة الأرض هذه ضمن التخطيط المستقبلي للخطّ السريع، وذلك بموجب وثيقة موقّعة من مجلس الوزراء نفسه. رأسي ينفلق وضغط الطائرة سيفجّره بلا شكّ، لماذا لا أسافر بحبوب للصداع مثل بقيّة خلق الله؟ أمدّ يدي إلى اللحم بعد لقمات عديدة من الأرزّ وحده، وأطير في رضا أبي، وحين عدنا كادت أفعى صحراويّة تهاجمني لولا أن هوى عليها أبي بعصاه وقتلها، وحين احتضنني أخيرًا بقوّة، كنت مفتوح العينين أشمّ دشداشته، وأرى النجوم تسّاقط من سماء الله وتلتصق في مصره لتصبح جزءًا من زخرفته.

لم أكن قد رأيت سوقًا في حياتي، فالدكّان الوحيد في العوافي، وحلويات العيد على ألواح الخشب بجانب مصلّى العيد، كانت كلّ ما عرفته، أمّا في عبري فكان السوق عبارة عن صفّين متقابلين من الدكاكين، وربّما المخازن، إذ لم أر بائعًا واحدًا داخل أيّ دكّان، بل كان البائعون يفترشون الأرض أو الدكك الحجريّة المفضية إلى دكاكينهم، كلّ بائع يصفّ أمامه قفرًا مختلفة الأحجام محمّلة ببضائع متنوّعة: تمور مجفّفة، بهارات، ليمون مجفّف، فلفل، شعير، وبعض هؤلاء البائعين كان يصفّ أمامه صينيّة أو اثنتين من قشاطة النارجيل اليابسة. ولا شكّ أنّ هذه الصواني الحديديّة هي سرّ التصاق صورة السوق بذهني حتى اليوم. أغمض عينيّ فأرى بوضوح جذوع النخل والسعف وهي تصنع سقفًا يصل

بين صفّي الدكاكين، والمعالق الحديديّة التي عُلّقت عليها البسط الصوفيّة، والسلال، والجلود، وحصير الخوص، وحتى العوال برائحته الحادّة. الصبية يتراكضون هنا وهناك، معظمهم يرتدي أحزمة جلديّة تمهيدًا للبس الخنجر في المستقبل، والبائعون يتبادلون الأخبار، أو يحدّقون في الناس بلامبالاة، أو يلوّحون بعصيّهم في الهواء. تعلّقت باللون الأحمر في عماماتهم، وبمزيج الروائح، وبالقشاطة.

كان الحلاّق يفترش الأرض، جالسًا مستقيم الظهر، بمصر وخنجر وساعدين مشمّرين، وكان الزبون يجلس مقابله، على مسافة كافية ليحني جسده إلى الأمام قليلاً، ويسلّم رأسه إلى الحلاّق المبتسم، الزبون لم يكن يفترش الأرض، بل قطعة خيش يتساقط عليها شعره المحلوق. كانت أدوات الحلاّق موضوعة على صندوق خشبي قديم بجانبه، مع سطل صغير من الماء يرشّ به صلعة الزبون، إذ لم يكن للحلاّق أيّ خبرة في قصّ الشعر، وإنّما حلقه نهائيًّا من جذوره.

لا أدري كيف استيقظت بداخلي كلّ تلك الروائح وأنا أشاهد مع ميا نهوض قصر جميل على الأرض التي اختارتها ورفضت البلديّة أن تبيعنا إيّاها، الأرض التي كانت جزءًا من التخطيط المستقبلي للخطّ السريع في المحافظة. كانت ميا تردّد غاضبة: «ها هي الأرض قد بيعت، أين التخطيط وتوقيع مجلس الوزراء؟ كم ستدفع البلديّة الآن لتحويل الخطّ السريع للشارع كرمى لرغبة من اشتهى الأرض لقصره؟».

وأنا لم أقل شيئًا، روائح السوق القديم في عبري تملأني.

الصداع يصمّني، حين كنت صغيرًا كانت يد أبي على رأسي تمتصّ الصداع منه، يضعها عليه، ويردّد: «وله ما سكن في السماء والأرض»، فيسكن رأسي، ويذهب ألمه.

لكنّ يد أبي المعروقة انتفخت تحت الإبر المغذّية في مستشفى النهضة وعجزت أن تمتدّ لرأسي الذي كاد يفتك به الألم والأرق.

يد بيل مدرّس اللغة الإنجليزيّة لم تكن معروقة، كانت مغطّاة بالنمش، هو الذي أقنعني بضرورة تعلّم الإنجليزيّة، قال لي بعربيّة سليمة حين التقينا في حفل عشاء أقامه أحد التجّار: «أنت رجل أعمال ولا تعرف الإنجليزيّة؟ أيّ مطعم في مسقط نفسها لا يخدمك بدون لغة!»، وصدق، كنت قد تعبت من الإحراج في حجز الغرف في الفنادق، وفي دعوات العشاء في المطاعم داخل بلادي العربيّة التي لا تتحدّث مطاعمها ومستشفياتها وفنادقها غير الإنجليزيّة.

انخرطت في دروس خاصّة معه، كانت عيناه زرقاوين، ولا تشفّان عن شيء، لكنّ ابتسامته تنمّ عن ذكاء شديد. قبل أن أعرفه، لم أكن أتصوّر أن تكشف ابتسامة شخص ما عن ذكائه، لكن بيل كان يبتسم، فيشعّ الذكاء من ابتسامته وحدها.

أبي لم يكن يبتسم، ربّما كان يبتسم، قليلاً، نادرًا، إن ابتسم تبعث ابتسامته الرضى في قلبي، لكنّ شرر الذكاء المتطاير من عينيه لا يوقظ سوى الرعب فيّ. لن أكون بمستوى ذكائه أبدًا، مهما تعلّمت، سأظلّ الولد الغرّير، الذي لن يعرف كيف يُدير تجارته،

ولن يصل لمستوى ذكائه. نظرة الذكاء أو ابتسامته التي أبحث عنها عبثًا في وجوه أولادي، لندن؟ نعم، ربّما هي، لولا أن تورّطت في كذب أحمد. آه، يمنعني الغضب من التنفّس، حين اكتشفت ميا مكالماتهما كسرت هاتفها النقّال بحجر، أقفلت عليها باب الغرفة وضربتها كما لم تضرب أحدًا من قبل. ظلّت مترصّدة لأيّ نأمة منها، لكنّ لندن العنيدة أصرّت على حبّها. لماذا يؤذيني الآن كلّ ذلك؟ ألم ينته كلّ شيء؟ أيؤذيني أنّي استسلمت لها وزوّجتهما؟ أيؤذيني أنّني لم أقف بجانب حبّها منذ البدء؟ أيؤذيني أنّي عيّرتها باختيارها حين فشل؟ أيؤذيني أنّه آذاها؟ أيؤذيني أنّ ميا لم تعرف الحبّ فلم تعرف كيف تعامل ابنتها حين أحبّت؟

ألم تعرفي الحبّ يا ميا؟ ألم تشعري بي وأنا أطوف حول بيتكم كما يطوف الحاجّ حول كعبته؟

كيف يتّسع البيت لكلّ ذلك العشق؟

كيف تتحمّل الشرفة الوحيدة وقوفي الوحيد بأكداس العشق الثقيلة عليها، دون أن تتهدّم، وتتساقط على تراب الشارع، أو تطير في سماء الله؟

كيف احتملت الغرفة الصغيرة أطنان السحاب الذي خزنته فيها لأمشي عليه؟ وكيف لم تتزعزع الجدران بين يدي عذاب فرحي الذي لا يطاق؟

كلّ شيء ظلّ في مكانه، رغم أنّي لست في أيّ مكان.

لم تطر الأبواب رغم أنّ جسدي الطريح عليها كان مثقّبًا برصاص الشوق الحيّ.

ولم تتكسّر النوافذ رغم أجنحتي التي انفردت على زجاجها، من أوّل نافذة البيت حتى آخر نقطة في الأفق.

البيت اتّسع لي. اتّسع لصرخة العشق الناهشة تجول أصداءها فيّ.

فكيف، يا ميا، لم تر عيناك المطبقتان على ماكينة الخياطة، براحي وسجني؟

فتحت أسماء عينيها فتذكّرت أنّ اليوم يوم عرسها. تململت لبرهة في فراشها، تحسّست بطنها وابتسمت لفكرة تكوّره بعد أشهر قلائل، طوت منامها والغطاء وعلّقتهما على الوتد، ثم انطلقت إلى المطبخ، فوالدها يحبّ القهوة بعد صلاة الفجر مباشرة.

وجدت أمّها أسماء جالسة على مدخل المطبخ على الدرج المتكسّر الحوافّ، عجبت لشرودها، فأمّها لا تترك نفسها لحظة واحدة خارج السيطرة، ولطالما فكّرت أسماء أنّ أمّها من البشر الذين لا يشردون قطّ: حيّتها بصوت منخفض، وفي داخل المطبخ كانت القهوة تغلي على النار، وكان الهيل معدًّا بجانب الدلّة.

هناك خطأ كبير، لكنّ أسماء لا تعرف أين هو.

شرب أبوها فنجانين كالعادة، ونظر إليها وهو يمضغ تمرات صباحه، لم تحسّ أسماء بالخجل، أحسّت في عينيه لومًا صامتًا، وأحسّت بالذنب، لكنّها، مرّة أخرى، لم تعرف أين الخطأ.

بعد ذلك مباشرة احتجبت في غرفتها كما أمرتها أمّها، لا ينبغي أن يرى أحد العروس قبيل عرسها، ميا احتجبت أسبوعًا، لم ترها

جارة واحدة حتى ليلة العرس. تنهّدت أسماء، حمدًا لله أنّ أمّها لم تصرّ على عزلها أسبوعًا هي الأخرى، واكتفت بمنعها من الخروج من البيت، وهو ما كان ساريًا على أيّ حال في جميع الأوقات، من المضحك أنّ أمّها خصّصت ذلك بالأسبوع السابق للعرس. هل أرادت أن تعرف أسماء قيمة الحرِّيّة التي سيتيحها لها الزواج؟ آه نعم، ستصبح امرأة، من حقّها أن تخرج وتختلط بمجتمع النساء الكبيرات، من حقّها أن تحضر الأعراس كلّها، القريبة والبعيدة، كما تحضر المآتم.

ستشارك أسماء النساء الجلسات حول القهوة ضحى وعصرًا، كما ستُدعى وتدعو للعزومات على الغداء والعشاء، بوصفها امرأة مكتملة، وليست مجرّد بنت.

الزواج هو صكّ إعلانها امرأة مكتملة، وهو جواز مرورها للعالم الأوسع من البيت.

قبل بضع سنين كانت مواسم حصاد التمر فرصة لفسحتها ورفيقاتها، يخرجن في الصباح الباكر إلى مزارع العوافي، يدرن من مزرعة لأخرى ليشاهدن مراحل جداد التمر وفرزه وتنقيته، يلعبن بالبسر الأحمر الفجّ، ويتعابثن بماء السواقي الذي ينساب من مزرعة لأخرى وفق جدول زمني صارم لتوزيع المياه بالعدل، لكن قمّة المتعة تنتظرهنّ في آخر النهار في الساحة التي تلي المزارع، حيث يجتمع الناس لعمل الفاغور. تتذكّر أسماء كيف كانت تدهشها كمّيّات البسر الهائلة التي تتدفّق في أفواه المراجل الضخمة المليئة

بالماء المغلي، تتبارى مع صديقاتها في تحديد الفاغور الذي سيجهّز أوّلاً، حين سيزيحه الرجال عن المراجل بالمغارف المصنوعة من كرب النخيل، ويراكمونه استعدادًا لتجفيفه في الشمس، ثم شحنه إلى مسقط حيث تشتريه الحكومة لتصديره إلى الهند خاصّة. لا تحبّ أسماء طعم الفاغور، تفضّل الرطب الطازج أو التمر، وأهل العوافي يأكلون الفاغور لتذوّقه لا غير، طعامهم الحقيقي هو التمر الطازج. تقضي أسماء مع رفيقاتها كلّ النهار في الركض واللعب وتسلّق النخلات الصغيرة والتأرجح في حبال الليف بين نخلتين، ومشاكسة النساء اللاتي يعملن في المزارع لتنقية التمر لقاء كمِّيّة منه يحملنها في آخر النهار على رؤوسهنّ، أو لقاء شوالات من الخشاش لإطعام شياههنّ أو بيعه لمن يملكون الشياه، تتذكّر أسماء كيف ثقبت خيش فطّوم دون أن تفطن لها، فصنع الخشاش المتساقط من شوالها خطًّا طويلاً وراءها أضحك رفيقات أسماء أيّامًا بأكملها، لكنّها كبرت الآن، لم تعد تذهب لمواسم الحصاد.

لم تعد تخرج حتى في بدايات شهر ذي الحجّة لتغنّي مع رفيقاتها:

محمّد هابط الوادي

بلا ماي ولا زادي

محمّد هابط الجنّة

بنات الحور يجرَّنّه

تمّت صلاتي على النبي

تمّت صلاتي على الرسول

ما إن ارتفع الضحى حتى ضجّ البيت بأصوات النسوة اللائي جئن لينقلن جهازها إلى بيت العريس، ملأوا سيّارة البيك أب التي استأجرها عيسى المهاجر من بدوي بحقيبتَيْ أسماء، ومندوسها، والوسائد المطرّزة والسجّادتين الفارسيّتين. كانت الحقيبة الأولى تضمّ ملابس عرسها الجديدة ولا تكاد الثانية تحتوي شيئًا غير زجاجة العطر الفرنسيّة ودهن العود والبخّور، لكن أمّها أصرّت على الإيحاء بكثرة جهاز ابنتها وأهمّيّته.

ذهبت ميا مع النسوة لترتيب حاجيّات أختها في بيتها الجديد، الذي لم تره أسماء بعد. بقيت العروس في غرفتها المغلقة مع خولة وإحدى الجارات التي تولّت أمر الحنّاء. فكّرت أسماء بالأمومة، والملابس الجديدة، رقص النساء، فراقها للبيت، ولم تفكّر بخالد، عريسها المنتظر، حين أخبرتها أمّها قبل أسابيع بموضوع الخطوبة، فكّرت بهدوء، ثم وافقت.

في مساجلاتهما الشعريّة تُردّد أسماء أحيانًا أو يُردّد أبوها أبياتًا غزليّة، وتقرأ له دائمًا في ليالي الشتاء خاصّة من ديوان المتنبّي ويبتسمان معًا لمقدّمات النسيب في قصائده، لكنّها لم تتعلّق بشعر الغزل كما يتعلّق به هو، كما لم تنجذب لمشاهد الحبّ في الروايات القليلة التي قرأتها إلاّ انجذابًا عابرًا، أحسّت أنّ هذه الروايات ـ التي جلبتها لها إحدى صديقاتها من مكتبة صغيرة في

مسقط ـ غريبة وبعيدة تمامًا عن الواقع، آخر رواية قرأتها كان عنوانها «خفايا القصور» تدور أحداثها في فرنسا في القرن الثامن عشر، وتتحدّث عن الغرام الملكي المليء بالفرح والخيانة والمسرّات. لم تقتنع أسماء بالرواية، وفضّلت أن تقرأ الكتب الأخرى الأكثر واقعيّة في نظرها. النصّ الوحيد الذي لفت انتباهها ولامس أعماقها هو النصّ الذي حفظته دون أن تفهمه تمامًا، النصّ الذي يقول شيئًا ما عن الأرواح الكرويّة المنشطرة المنفصلة التي تعود لتلتقي من جديد، هكذا تخيّلت الحبّ: روح تشبه الأخرى وتلتقيان، لم تتخيّل يومًا أن تمرّ بتجربة حبّ ملتهبة يصبح فيها ليلها طويلاً كليل العاشقين عند المتنبّي، أو مليئًا بأنواع الهموم كليل امرئ القيس. أرادت أن تتزوّج شخصًا متميّزًا عن الآخرين، تستقرّ معه وتحبّه وتمارس نزوعها الحادّ للأمومة.

قلبها خليّ، فلمَ لا ينفتح لخالد؟ اعترفت لنفسها أنّها انشغلت قليلاً بمروان، ابن عمّ زوج أختها ميا، رأته في مناسبات قليلة وأحسّت بطهره وصفائه، كانت ملابسه بيضاء كلّها، ولا يكاد يتكلّم، فدفعها غموضه إلى الحلم به، ولكنّها كانت مدركة أنّها لم تكد تراه إلاّ لدقائق، وحين انتزعت فرصة في العيد الماضي وقت قدومه لسلام العيد لتتمعّن فيه روّعتها نظرة عينيه، لم تفهم شعورها ولكنّها فزعت من نظرته، رأت شيئًا غريبًا تحت سكون أديمه، وكفّت عن التفكير فيه.

خالد.. خالد.. رسّام الخيول، متميّز كما حلمت بلا شكّ،

لُقِّبَ أبوه عيسى بالمهاجر بعد أن هاجر لمصر عام ١٩٥٩ إثر هزيمة الإمام غالب الهنائي في حرب الجبل الأخضر، وكما فعلت حوالى ألفي أسرة عمانيّة خوفًا من بطش الإنجليز، حمل عيسى أسرته الصغيرة واستقرّ في القاهرة. درس ولداه خالد وعليّ هناك، ثم وُلدت ابنته غالية، وحين عرضت الحكومة الجديدة في السبعينيّات المصالحة ودعت اللاجئين للعودة للمشاركة في بناء النهضة الجديدة لعمان موحّدة، رفض عيسى المهاجر العرض وتمسّك بغربته.

بعد مرض غالية ووفاتها أصرّت أمّها أن تدفنها في بلدها العوافي، كان خالد قد تخرّج لتوّه في كلّيّة الفنون الجميلة، فعاد مع والديه إلى بلده التي غادرها صبيًّا، وبقي عليّ في القاهرة حتى أنهى دراسته وارتباطات العائلة، ثم عاد إلى بلد لا يتذكّر من طفولته فيه إلاّ الشيء القليل، وها هما يخطبان أسماء وأختها خولة!

هناك نسب بعيد يربط بين العائلتين ولكنّه كاف لتلتقيا خاصّة في مواسم الأعياد. رأت أسماء خالدًا عدّة مرّات وتبادلا أحاديث قصيرة، ورأت لوحاته في المرّة الوحيدة التي سمحت لها أمّها بمرافقتها إلى بيتهم. غمرتها الدهشة من هذا الكمّ الهائل من اللوحات التي تتناول موضوعًا واحدًا: الخيول!

كانت قوائم الخيل في لوحاته دقيقة ومرتفعة، لا تكاد تلامس الأرض، كأنّها ستطير، وكانت أسماء تحسّ بقلق خفيّ وهي ترقب هذه القوائم، كانت تودّ لو تبدو أكثر ثباتًا، وقربًا إلى الأرض. بعد سنوات، سينبثق تعلّقها باللوحات التي تصوّر نساء حافيات بأرجل

وأقدام ضخمة من قلقها من قوائم الخيل، الخفيفة، الهشّة، العابرة، في لوحات زوجها. سترى في أرجل النساء الحافية الضخمة التحامًا بالأرض، بالأصل، ورسوخًا مطمئنًّا للكائن.

كان عيسى المهاجر واضحًا مع أبيها: نريد أسماء وخولة لخالد وعليّ، وستسكنان معنا في مسقط، من عاش طويلاً في مدينة كالقاهرة لا يستطيع احتمال الحياة في قرية صغيرة كالعوافي.

الانتقال إلى مسقط يعني لأسماء أن تتمكّن من إكمال دراستها، ستلتحق بإحدى المدارس الثانويّة هناك، وربّما بعد ذلك تتمكّن من الالتحاق بالجامعة التي يُقال إنّها تُبنى الآن، أو بإحدى الكلّيّات، وتتعلّم وتتعلّم.

تذكّرت أسماء حكاية أمّها عن جدّها الشيخ مسعود الذي ورث مكتبته. كان ولدًا ذكيًّا شغوفًا بالعلم، حاول الالتحاق بالمدرسة السعيديّة في مسقط وهو فتى، ثم رأى أبوه أنّ الحياة في مسقط خطرة على سليل قبيلة مثله. تعلّم الولد على أيدي المشايخ وأئمّة المساجد، متنقّلاً بين المراكز العلميّة آنذاك في نزوى والرستاق، ولكنّه لم ينس حلمه القديم في المدارس العصريّة.

حين كبر حاول مع آخرين أن يؤسّس مدرسة جديدة عصريّة في مدينة ساحليّة مفتوحة، اختاروا مدينة صور، وبدأوا بالتخطيط والتجهيز للمدرسة، وضعوا أساس البنيان، لكنّ أوامر عُليا صدرت لهم بالتوقّف. في الأربعينيّات كانت السلطة مذعورة من فكرة تعليم العمانيّين، قال أحد المسؤولين الكبار لحليفه الإنجليزي: «هل

نعلّم العمانيّين كما علّمتم الهنود فثاروا عليكم، وعمّا قريب سيطردونكم؟». هكذا أُجهض مشروع المدرسة في صور. وعاد مسعود لكتبه المجلوبة من الهند ومصر والشام.

سالمة، وهي تحكي لأسماء عن جدّها، لم تعرف كيف تبرّر دأب والدها على التعلّم، ولكنّ أسماء، التي أحسّت بإحساسه نفسه، همست لأمّها: «التوق المحرق للعلم».

فهذا التوق أحرقها، كما أحرق جدّها من قبل، رغم عشرات السنوات بينهما.

حين غادرت السيّارات البيت بجهاز أسماء، تهالكت أمّها وحيدة في الدهليز، أحسّت بالجوع، الإحساس الأكثر ألفة في طفولتها، لقد كبرت تحت جدار المطبخ، محرومة من أطايبه في قلعة عمّها، لم تكن تطبخ أو تكنس أو تحمل الماء والحطب على رأسها فهي ليست عبدة، ولكنّها لم تكن أيضًا تشبع أو تلبس أيّ ملابس جميلة أو تتعلّم التطريز، فالشيخ سعيد ليس أباها بل عمّها فقط. لم تكن تستطيع الخروج من القلعة ولا اللعب مع بقيّة البنات في الحارة، ولا التضاحك أثناء الاستحمام الجماعي في الفلج، ولا الرقص في الأفراح كما تفعل بنات العبدات، لم تكن أيضًا تستطيع إيجاد بقايا الأقمشة القديمة لصنع ثياب العرائس الخشبيّة، ولا التحلّي بالقلائد والأساور الذهبيّة، ولا التمتّع بلذائذ المائدة كما تفعل بنات الشيوخ. كانت تكبر تحت جدار المطبخ الخارجي، في الجوع، ومراقبة حرِّيّة العبدات في الحياة والرقص، وحرِّيّة السيّدات في السلطة والزينة والزيارات.

تذكّرت زيارات أمّها الخفيّة الذليلة لها ومعاذ، كانت تأتي دائمًا دامعة العينين، تحضنهما وتغمغم بكلمات غامضة، توسّلت

غير مرّة للشيخ سعيد أن يسمح لهما بالعيش معها في بيت أخيها، لكنّه قال إنّه لن يترك أولاد أخيه ليربّيهما الأغراب.

ولمّا بلغت سالمة العاشرة جاءت أمّها لزيارتها، لم تجلس معها في الحوش تحت جدار المطبخ، وإنّما قادتها إلى غرفة داخل قلعة عمّها، بسطت طرف لحافها المعقود على شيء ما، فكّت العقدة وأخرجت أزواجًا عدّة من الحلق الفضّيّة وإبرة، ابتسمت لابنتها وهي تخبرها أنّها استطاعت بعد عناء أن توفّر ثمن الحلق لها، وأنّها منذ اليوم لن تكون أقلّ شأنًا من بنات عمّها. أرقدت سالمة في حجرها، غمست الإبرة في ثوم مدقوق لتطهيرها، ثم غرستها في أذن سالمة صانعة عشرة ثقوب على الأقلّ من أوّل صيوان الأذن حتى آخره، تبلّل حجرها بدموع الطفلة التي استسلمت، علّقت خيوطًا سوداء في كلّ ثقب، وبعد أن خفّ تورّم الأذنين بعد يومين، جاءت أمّها لتنزع الخيوط وتعلّق بدلاً منها الحلق الفضّيّة على شكل حلقات تكبر تدريجيًا، كانت أمّها فخورة جدًّا، وقد فهمت سالمة ذلك فتحمّلت الآلام الرهيبة التي سبّبتها الأقراط الثقيلة في أذنيها. ظلّت أذناها تتورّمان وأصبح من المستحيل أن تنام على أحد جنبيها فسهرت ليالي كثيرة محاولة النوم على بطنها وذقنها مستند على الأرض، وحين شُفيت بعد أسابيع وتعوّدت على ثقل الحلق الفضّيّة كانت قد كرهت كلّ أنواع الحليّ بل كلّ أشكال الزينة.

حين تتربّع ظريفة على الأرض يسقط صدرها الضخم على حجرها، أصابعها الممتلئة، المزدحمة بالخواتم الفضّيّة تفكّ الأشرطة اللاصقة عن علب الحلوى العمانيّة، تضرب السطح البنّي المترجرج المزيّن باللوز ضربات خفيفة وهي تردّد: «شوف، شوف الخير، شوف النعمة، ويقولوا لي لا تأكلي، سكّري، وما سكّري، طبه[1] السكّري، ظرّوف ما تترك الحلوى، قال سكّري قال»، وتأكل بجميع أصابعها كأنّها تنتقم لكلّ سنوات الجوع التي عرفتها في بيت الشيخ سعيد قبل أن يشتريها أبي.

خبّئيني في صدرك يا ظريفة أنا خائف، احشري رأسي بين حجرك وصدرك، دعيني أستنشق العرق والمرق، ودعيني أنام.

أنا خائف يا ظريفة. أبي لا يسامحني على موتك وأنا خائف. خرج مرارًا من قبره وسألني عنك، لفّني بحبال الليف ونكّسني في البئر.

صحتُ من قاع البئر: ماتت ميتة ربّها، بعدك ببضع سنين.

---

(١) طبه: دعك منه.

لم يرفعني.

تركني منكّسًا في الظلام.

قلت له: «والله العظيم يا أبي لم أعرف، انتقلت إلى مسقط وانشغلت بتجارتي، لم أرجع إلى العوافي إلاّ في الأعياد، سمعت أنّها عادت من الكويت، قالوا إنّها لم تطق الحياة مع شنّة، قال بعضهم إنّها طردتها من البيت وقال بعضهم إنّها اتّهمتها بالجنون وأرادت حبسها فهربت ظريفة. قال بعضهم إنّها افتقدت العوافي ولم تصبر على الغربة، قالوا إنّها رأت في المنام أمّها عنكبوتة تناديها فعادت.

سكنت عند أقرباء.

كنت مشغولاً يا أبي، كنت أحاول مع شريكي أبي صالح أن نبني تجارتنا وأعمالنا بعد انهيار البورصة.

كنت مشغولاً يا أبي، كنت أدور في مسقط، في الخوير، في الغبرة، في الحيل، في السيب، في كلّ مدينة تتبع مسقط بحثًا عن قطعة أرض، عن بيت، عن ڤيلاّ، عن مقاولات، عن عقارات، عن مركز لمحمّد لعلاج مرض التوحّد، عن مراكز تعلّم الإنجليزيّة، عن مراكز تعلّم الحاسوب، عن سيّارة أكبر من مرسيدسك البيضاء القديمة، عن صفقات، عن شركات طيران، عن مكاتب استقدام خادمات، فلبينيّات، أندونيسيّات، عن مدارس للأولاد، عن مدرّسين خصوصيّين، عن سائق، عن أماكن للسهر، عن أصدقاء...

لكنّ أبي لم يرفعني.

شدّ يا أبي حبل الليف، ارفع طرفه ليشتدّ طرفه الآخر على وسطي وأرتفع، البئر مظلمة يا أبي والأفاعي تسكنها، ارفعني يا أبي، لن أسرق بندقيّتك، لن أذهب مع مرهون وسنجر، سنجر عمل حمّالاً في السوق يا أبي وشنّة عاملة نظافة في مدرسة، ظريفة هي التي تركتهما ولم تطق الحياة في الكويت.

أخرجني من البئر يا أبي، لن أشتهي العقعق، لن ألعب مع الأولاد بالكرة، لن أسهر على أنغام عود سويد المسحور، لن أصرخ في وجهك وأنت في الغيبوبة أنّ سنجر قد هرب كما هرب أبوه حبيب، وأنّي الوحيد الذي لم يهرب.

ارفعني، لن أترك ظريفة، حبيبتك، أمّك، ابنتك، عبدتك، سيّدتك، تموت وحيدة في مستشفى منسي.

استفحل السكّري يا أبي، السكّري، تعرفه؟ استفحل في جسدها وبتروا ساقها، قال أقرباؤها: لن نعول امرأة كسيحة. بتروا ساقها الأخرى، قال الجيران: من سيأخذها للحمّام؟ من سيجرّ هذا الجسد الضخم بلا قدمين؟ لان لهم مدير المستشفى فتركها نزيلة دائمة تخدمها الممرّضات.

ارفعني يا أبي.

ارفعيني يا ظريفة.

أنا خائف.

أنا خائف.

ضمّها عزان إليه بقوّة: آه يا نجيّة... يا القمر... أريدك لي.

همست نجيّة: ولكنّي لك.

تنهّد: لا.. لست لي تمامًا، الغير غير.

أفلتت نفسها منه: كيف يعني الغير غير؟

قال: يعني الكائنات منفصلة يا نجيّة حتى في اتّصالها وهذا أقسى أنواع العزلة.

نظرت إليه باستنكار، فابتسم لها: هل تذكرين ابن الرومي؟

ابتسمت: المتشائم؟ أذكره.

ضمّها ثانية: أتعرفين ماذا يقول؟

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ إليها وهل بعد العناقِ تدانِ

وألثمُ فاها كي تزولَ حرارتي فيشتدّ ما ألقى من الهيمانِ

وما كان مقدارُ الذي بي من الجوى ليشفيَهُ ما ترشفُ الشفتانِ

فإنّ فؤادي ليس يشفي رسيسه سوى أن تُرى الروحانِ تمتزجانِ

تنهّدا معًا، ثم استرسل عزان: إنّ الشعراء الذين تغنّوا بلذّة الامتلاك لم يكونوا عشّاقًا بل قنّاصين.

ابتسمت نجيّة بسخرية خفيفة: قنّاصون؟

قال عزان بثقة: نعم قنّاصون، العاشق يا نجيّة لا يمتلك المعشوق مهما اتّحد معه وتلذّذ به، المعشوق يا نجيّة كائن مثلك، كائن لا يُمتَلك.

بدا الضجر على وجه نجيّة التي لم تعرف في حياتها كيف تخفي مشاعرها، وتضايقت خاصّة لأنّ عزان يفسد لقاءاتهما الحميمة بمثل هذا الكلام، لماذا يتحدّث عن الامتلاك؟ هو الذي عنده أسرة وأولاد وهي لم تطالبه بشيء. هي سعيدة هكذا، ولا تفكّر بالامتلاك والقنص، هي رغبت أن تكون حبيبته فكانت، ولا تريد شيئًا آخر، فلماذا يبدو دائمًا معذّبًا بأشياء غامضة لا تفهمها؟

وقفت أسماء أمام المرآة التي طالما وقفت أمامها خولة. رأت فتاة مربوعة، لمّا تصل العشرين، بعينين عسليّتين واسعتين، وأنف قصير، أحسّت أنّ أهدابها ثقيلة بطبقات الماسكرا، وأنّ فمها المصبوغ بالأحمر يشبه حقًّا فم مهرّج. ألقت نظرة خاطفة على جسدها المحشور في الدشداشة اللامعة الضيّقة، دشداشة العرس التي اختارتها أمّها وأمّ العريس، وملئت بالتطريز عند النحر والأكمام والذيل، أحسّت بالقلق الغامض يداهمها مرّة أخرى، تشاغلت بالنظر إلى نقوش الحنّاء في يديها، ثم نظرت إلى جسدها في المرآة مرّة أخرى، ابتسمت بتوتّر لمرأى صدرها المرفوع، تذكّرت رعبها حين فاجأتها إشارات الأنوثة الأولى قبل بضع سنوات، كيف كرهت هذا البروز الطفيف، وواظبت على الدعاء كلّ ليلة قبل النوم كي يختفي في الصباح، ثم امتثلت لأشهر طويلة لإرشادات أختها ميا بشأن إخفائه. قالت ميا في ذلك المساء المظلم وهي تستمع لبكاء أسماء عند الفلج حيث يغسلن الملابس: «لا تخافي يا أسماء، هذي شحمة جديدة، إذا فركتيها بالماء والملح بتذوب، وإذا طلعت شحمة قاسية مثلما طلعت معي

فسأضيّق لك كلّ فانيلاتك الداخليّة حتى تنضغط الشحمة ولا يراها أحد»، كانت أسماء لا تستطيع التنفّس أحيانًا من ضيق فانيلاتها، كما أدّى الملح إلى تقشّر صدرها الصغير، الذي ظلّ ينمو رغم كلّ شيء، حتى أمرتها أمّها بلبس اللحاف وعلّمتها كيف تلفّه حول رأسها بحيث يغطّي صدرها أيضًا، فعادت للتنفّس بحرّيّة، وتوقّفت عن دعائها كلّ ليلة.

نزلت أسماء بنظراتها إلى بطنها المشدود في المرآة، لم تتمالك الابتسام وهي تتخيّل تكوّره، تمنّت ألاّ يخلو حتى يتكوّر من جديد، لم تتخيّل عددًا معيّنًا من الأطفال، تخيّلت نفسها عجوزًا بجانب خالد وعشرات الأولاد والبنات والأحفاد يحيطون بهما.

تأمّلت عينيها في المرآة، اختلجت لفكرة أنّها على وشك أن تتّحد بشطرها المفصول عنها منذ بدء الخليقة، استعادت نصّها المفضّل عن كون الناس أشطارًا مقسومة، فلا يرتاح كلّ شطر ويكتمل حتى يتّحد بشطره الآخر. بِمَ يشعر خالد الآن؟ هل هو قلق مثلها؟ هل هو سعيد؟ آه رغم كلّ هذه الهواجس فإنّها لا تستطيع الانتظار حتى يكونا معًا.

بحلول الغروب بدأت النساء بالتدفّق على بيت سالمة، تحلّقن حول صواني الأرزّ واللحم والفاكهة في سماطات مُدّت بامتداد الحوش، وتعالت أصوات الغناء والطبول فاتّسعت حلقات الرقص، انضمّت ظريفة للمجموعة التي ترقص الحمبورة، ثم جاء موكب أمّ العريس، التي دخلت مع ثلّة من قريباتها وهنّ يتصايحن بمرح:

نريد عروستنا. . أعطونا عروستنا، واتّجهن مباشرة إلى حيث جلست أسماء وهي مغطّاة بشال حريري أخضر، فأنهضتها سالمة واحتضنتها قبل أن تضع ذراعها في يد أمّ العريس، التي زفّتها بفخر إلى سيّارة المرسيدس الحمراء المزيّنة الواقفة على الباب ويقودها عيسى المهاجر بنفسه، وسرعان ما تبعت النساء الموكب وركبن الحافلات المخصّصة للزفاف، التي انطلقت خلف سيّارة العروس إلى مسقط حيث الشقّة التي استأجرها خالد لتكون عشًّا للزوجيّة.

حين خرج موكب العروس من بيتها ران عليه سكون مفاجئ أرعب قلب سالمة التي تهالكت على درج الدهليز، ها هي بنت ثانية من بناتها تغادر البيت، بل إنّها الأثيرة لديها، تنهّدت سالمة: «نربّيهنّ ليأخذهنّ الأغراب». تركت كلّ شيء على حاله، ففي الصباح ستجد من يساعدها في التنظيف والترتيب، أمّا الآن فالجميع يكمل الغناء والرقص في الحافلات ثم في بيت العريس. تمنّت أن تكون هناك حين سيرفع خالد الشال الحريري عن وجه أسماء لكنّها احترمت التقليد الخاصّ بعدم ذهاب أمّ العروس إلى بيت العريس يوم زفاف ابنتها. فرشت لنفسها في الغرفة الوسطى التي أصبحت تنام فيها مذ هجر عزان فراشها، وهي مستلقية لم تعد تفكّر في أسماء، استغرقتها ذكريات عرسها هي، ويوم زفافها لعزان.

كانت في الثالثة عشرة حين أوعزت زوجة عمّها الشيخ سعيد له أن يرسلها لأمّها، فترك الشيخ سعيد أرملة أخيه تتوسّل إليه لمرّة

أخيرة قبل أن يوافق على أن تعيش سالمة معها على أن يبقى معاذ في بيته، فانتقلت إلى بيت خالها لتعيش أجمل سني حياتها ناعمة بدفء أمّها وعطف خالها الذي حُرِم من الأطفال، فرحّب بها أيّ ترحيب. كان بيت خالها يلقّب بالبستان، إذ تتوسّطه أشجار شتّى من المانجو والليمون والبرتقال والسفرجل والياسمين والورد، وكانت غرف البيت تتوزّع على شكل نصف حلقة حول الأشجار، فكان هذا البستان الصغير محور البيت وكلّ غرفة فيه مفتوحة عليه، ممّا ملأ روح سالمة بالأنسام الرطبة التي أجراها هذا النسق المعماري الفريد، وأحبّت خاصّة أن تغمس قدميها في سواقي الماء الضيّقة التي تروي البستان، والتي تنتهي في ساقية كبرى تمتدّ تحت الأرض لعدّة أمتار قبل أن تصبّ في الفلج الرئيسي في العوافي.

لكنّ حبور سالمة لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما أبلغ عمُّها والدتَها أنّه سيزوّج سالمة لقريبه عزان، وكان عزان شابًّا غرًّا يكبرها ببضع سنين، ولم تكن أمّها راغبة في تزويجها له، فانتصر لها أخوها وأصرّا على رفض الزواج، متحجّجين بأنّ عزان شابّ طريّ العود ما زال ملازمًا للقاضي يوسف ولا يُستبعد أن يلحق بأفراد أسرته المهاجرين إلى زنجبار ويترك عروسه، لكنّ الشيخ سعيد أصرّ على رأيه، وأنذر خال سالمة إن لم يفتح باب البستان لتخرج منه العروس فإنّه سيخرجها بطريقته. أحسّ الخال أنّ كرامته أُهينت فأصرّ على إغلاق باب بيته.

وفي اليوم المحدّد للعرس كانت سالمة تتناول العشاء مع أمّها

وخالها حين انبثق من الساقية الكبرى في البستان ثلّة من عبيد وعبدات عمّها الشيخ سعيد، وقفوا والماء يتقاطر منهم على شكل حلقة حول العائلة المذعورة، قالوا إنّ على سالمة أن تذهب معهم الآن وإلاّ سيضطرّون لأخذها عنوة، وإرجاعها سباحة عبر الساقية حتى الفلج الرئيسي، فتح خالها الباب فأخذ الرجال والنساء الذين هاجموا بيته من الفلج سالمة التي أصبحت عروسًا لعزان بعد بضع ساعات، ولُقّبت بعروس الفلج.

قالت لندن: «لماذا يقول الناس عن جدّتي إنّها ماتت مسحورة؟».

قلت لها: «لأنّ هذا كان تفسيرهم تجاه كلّ موت مفاجئ ومرض غامض».

قالت باهتمام: «وهل تعرف ما كان مرضها يا أبي؟».

تمتمت: «لا أعرف».

قالت لندن: «لكن أنا طبيبة وربّما يمكنني الاستنتاج، هل قال لك أحد عن أعراض مرضها ومدّته؟».

«نعم، يقول الناس إنّها مرضت فجأة بعد أسبوعين من الولادة، تغيّر لونها للأزرق، وانقبضت حدقتا عينيها، أخذ العرق يتصبّب منها وهي تتشنّج، فقال الناس إنّ السحرة يتقاتلون عليها، ولذا تتشنّج وتتصبّب عرقًا، ثم فاز بها أقواهم ولذا همدت فخُيّل للناس أنّها ماتت ودفنوها».

بهُتت لندن، سألتها: «ما بك؟»، قالت بقلق: «هذه الأعراض قد تكون مشتركة بين عدّة أمراض، لكنّ الأرجح أنّها أعراض

تسمّم، وأنا أتذكّر أنّ جدّتي سالمة أخبرتني أنّ العديد من الأعشاب السامّة مثل بذور حبّ الملوك، والدفلة الحمراء والصفراء تنمو في الصحراء المحيطة بالعوافي، قالت جدّتي إنّ بعض الضرائر كنّ يدسسن كمّيّات خفيفة منها في طعام ضرائرهنّ حتى يمرضن ويتفرّغ لهنّ الأزواج».

أمسكت كتفها: «لكن أمّي يا لندن لم يكن لها ضرائر».

هزّت رأسها: «نعم هذا صحيح، أين كان جدّي وقتها؟».

أجبتها: «في رحلة إلى صلالة لأجل تجارته، ولهذا لم يأخذها أحد إلى طومس، المبشّر الإنجليزي المشهور الذي كان يعالج الناس مجّانًا من الفجر حتى آخر الليل».

تمتمت لندن: «هذا غريب.. قد تكون تلك أعراض مرض آخر.. ربّما.. من يدري؟..».

لم أستطع النوم تلك الليلة، كلّ الناس يردّدون كلامًا مشابهًا عن السحرة والجنّ، ظريفة وحدها لم تكن تستجيب للحديث في موضوع مرض أمّي، ولكنّ ظريفة قد ماتت الآن، هل لكلّ هذا علاقة بإصرارها على تذوّق كلّ طعام قبل أن آكله طوال سنوات طفولتي؟ لا أعرف.. لا أعرف.. كيف لي أن أعرف؟

حين كانت آخر طبول عرس أسماء تدقّ كان عزان يتقلّب على الرمل البارد مع نجيّة، يتأمّل وجهها الذي لم ير في حياته شيئًا أجمل منه، ويردّد لها أبيات المتنبّي:

أفدي ظباءَ فلاةٍ ما عرفنَ بها مضغَ الكلامِ ولا زجّ الحواجيبِ

ما أوجه الحضرِ المستحسناتِ به كأوجه البدويّاتِ الرعابيبِ

حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وللبداوةِ حسنٌ غيرُ مجلوبِ

فتنفجر ضحكتها المجلجلة في صمت الصحراء، هذا صاحبك اللّي اسمه المتنبّي، اللّي قلت لي عنه؟

فيتنهّد عزان: «هو يا نجيّة هو»، فتعود للضحك: «وايش الرعابيب هذه؟».

يجلس عزان وينفض عنه الرمل: «الرعبوبة يا نجيّة هي المرأة الممتلئة، وظباء الفلاة يعني أنت».

فتتظاهر بالغضب: «أنا أمضغ الكلام؟».

«بل تمضغين قلبي يا نجيّة. . آه يا نجيّة كان القاضي يوسف

رحمه الله يكلّمني كثيرًا عن القلب، ولم أكن أفهم كلامه، والآن أفهم كلّ شيء».

تتمتم نجيّة: «كلّ شيء؟».

«كان يقول لي يا ولدي عزان، اسمك سرّ، حرف العين حرف بارد في الدرجة الرابعة، وفيه رطوبتان، وهو أوّل أسرار العرش وأوّل حروفه وأوّل عوالم اختراعه...».

لم تفهم نجيّة شيئًا كما أنّها لم ترتح لذكر القاضي يوسف، لكن عزان أكمل:

«ولمّا تزوّج مريم، قال لي إنّ قلبه لم يعد مرآة لجمال الكون كما كان، فقلبه مشغول بمريم وبالأولاد، ومرّة قال لي إنّه نادم لأنّه تجاهل وصيّة الغزالي للمريد بالبعد عن الزواج زمن الطلب».

تأفّفت نجيّة: «الغزالي صاحب الكتاب اللي يقراه يجنّ؟.. وايش المريد وزمن الطلب؟..».

«رحمك الله يا قاضي يوسف، مات ولا توجد برأسه شعرة واحدة بيضاء، والغزالي يا نجيّة له كتب كثيرة، ولا تجنّن، لكنّ الناس لا يفهمونها، يريدون أن يرتاضوا وهم لا يستكملون الشروط».

«ارتاض أنت يا عزان».

ابتسم وأغمض عينيه: «كيف وقلبي ممضوغ في فمك الجميل، كيف سيصبح مرآة يا قمري؟».

«أنا مرآتك».

ثم صمتا.

كانت الكثبان من حولهما صامتة، تردّد في أذن عزان بقايا أصوات، طبول عرس ابنته، وخلاخيل القمر الفضِّيّة، وضحكتها التي تشبه انسكاب المسك، وقصصها عن المشغولات اليدويّة التي يشتريها أحد التجّار ليبيعها للسيّاح في مطرح، ثم تلاشت كلّ الأصوات، حتى صوت المتنبّي الذي تعرفه الخيل والليل والبيداء والرمح والسيف والقرطاس والقلم. دخلت كلّ الأصوات في دورات متلاشية برأسه ثم امّحت ليبزغ صوت وحيد وعميق، صوت القاضي يوسف:

«من أخلص المجاهدة وتخلّص من مزيد الشهوة والغضب وغيرهما من الأفعال الذميمة والأعمال القبيحة وجلس في مكان خال وأغمض طرف الحواسّ وفتح عين الباطن وسمعه وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت وهو يتلو لفظ الجلالة الكريم وهو الله دائمًا بالقلب دون اللسان إلى أن يصير لا خبر له في نفسه وفي العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلاّ الله سبحانه وتعالى، انفتحت له طاقة ينظر فيها ويبصر في اليقظة ما يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة والأنبياء وغير ذلك من الصور الحسنة الجليلة الجميلة، وانكشف له ملكوت السماء والأرض ورأى ما لا يمكن شرحه ووصفه كما قال عليه السلام زُويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. تداوم على قول الله سبعة أيّام لا تذكر سواه، تصوم

نهارك وتقوم ما استطعت من ليلك وتتخلّى عن الناس ولا تكلّم أحدًا تظهر لك عجائب الأرض ثم دم على ذلك سبعة أيّام أُخَر تظهر لك عجائب السماوات، ثم كذلك سبع أُخَر تظهر لك عجائب الملكوت الأعلى فإن بلغت أربعين يومًا أظهر الله تعالى لك الكرامات وأعطاك التصرّف في الوجود».

ارتجف جسد عزان وأخذ العرق يغمره، مالت عليه نجيّة: «إيش فيك؟».

نظر إليها نظرة فزع ثم قال: «لازم أروح».

خطف نعليه وذهب.

«أنا خائف يا قاضي يوسف، أنا خائف، وقلبي مخطوف في وكر النسر، ومرآته مليئة بالنكت السوداء، وأنا لا أرى يا قاضي يوسف، لا أرى».

قالت لي ظريفة إنّي كنت أبكي بلا توقّف وأنا رضيع، أرادت عمّتي أخذي بعد أن صالحها زوجها وعادت إليه، لكنّ أبي رفض بحسم، وأوكل لظريفة مهمّة تربيتي، اشترى عددًا من الشياه الحلوب، لكنّ حليبها لم يكن كافيًا لتهدئتي ممّا دفع ظريفة لحشو أنفي بالسعوط أحيانًا لأنام، كما كانت تسكب بعض قطرات القهوة في أذنيّ حين تحدس بأنّي أبكي لوجع في أذني، أو تأخذني للمرضعات ليعصرن حليبهنّ في عينيّ إن اعتقدت أنّ سبب بكائي هو ألم في عينيّ. وما إن كبرت قليلاً حتى علّقت الخرز في عنقي لحمايتي من الحسد، وأقنعت أبي أن يثقب أذنيّ لتعلّق فيها حلقًا فضّيًّا كيلا يعرف أحد من «أهل الليل» أنّي صبي فيخطفني كما خطف أمّي، طرّزت طاقيّاتي بيديها ولم تخف فخرها لكوني الطفل الوحيد في العوافي الذي يرتدي في الأعياد نعالاً وجبّة مزيّنة بمرايا دائريّة صغيرة مجلوبة من الهند.

تحكي لي ظريفة كلّ ذلك وهي تضحك، ربّتني حتى حدثت «الغضبة الكبيرة» كما تسمّي الخلاف الكبير بينها وبين أبي الذي لم أعرف أسبابه قطّ. عاقبها أبي بهجرها ثم تزويجها من أكثر عبيده غرابة وعدائيّة، حبيب الذي يصغرها بعشرة أعوام على الأقلّ.

عادت الحافلات إلى العوافي من عرس أسماء وخالد قُبيل الفجر، كانت حماسة النساء للغناء والرقص قد فترت، وغلب بعضهنّ النوم، في حين ظلّت ميا مستيقظة على أحد الكراسي المطلّة على النافذة. إنّ كلّ شيء يحدث لها أشبه بالحلم، تزوّجت فجأة من ولد التاجر سليمان ثم تزوّجت أختها من ولد عيسى المهاجر، أمّا أختها الصغرى خولة فما زالت تنتظر ابن عمّها ناصر، وقد همست مرارًا في عرس أسماء: «يا ربّ رُدّ لي ناصر». الجميع يعرف أنّ ناصرًا لن يعود، لكنّ خولة العنيدة لا تستمع لأحد. حدّقت ميا من نافذة الحافلة في الجبال غارقة في ظلام مهول، لفّت ذراعيها على رضيعتها ذات الأشهر، إن كانت هذه الحياة مجرّد حلم فمتى سيستيقظ الناس؟ تحسّست صغيرتها، همست باسمها في خفوت: لندن.. لندن.. هل ستكونين سعيدة يا صغيرتي؟

بعد أكثر من عشرين سنة ستكون لندن قد طُلّقت في فترة العقد، وبعد طلاقها بفترة وجيزة بدأت تشعر بهذا الشعور الغامض

الذي يخدش اعتزازها بنفسها، شعور مبهم من الحنين والغيظ والغضب والندم، عرفت أنّها لن تعود أبدًا تلك الشخصيّة التي كانتها، وأنّ ما يسمّيه الناس «تجربة» هو في الحقيقة داء مزمن، لا يميتنا ولا نُشفى منه، لا نحتمله ولا نتخلّص منه، يرافقنا أينما ذهبنا ويثور في أيّ لحظة ليذكّرنا أنّ له مضاعفات غفلنا عنها أو تغافلنا، وما ينصحونها به من «فتح صفحة جديدة» مجرّد مزحة سمجة. حاولت لندن أن تقلب صفحة أحمد وتفتح صفحة جديدة، كم من الناس يفعلون ذلك كلّ يوم؟ قالت لها حنان: «أوه يا لندن الحياة لا تتوقّف، اعملي له ديليت، لت ات جو!»، لكنّ الصفحة ثقيلة، وقفت لندن أمامها لتقلبها فسقطت يدها. الناس مختلفون، يا إلٰهي! كيف يقلبون الصفحة؟ وحاولت أن تفتح صفحة جديدة، ولكنّها عرفت أنّه لا توجد أيّ صفحات بيضاء في الحياة. أحسّت بهذا الخدش يصبح جرحًا في كرامتها، ورأت الذلّ مغروسًا في جبين الشوق. رتّبت الدببة القطنيّة في سريرها، ونشرت عطرها الثمين من جوتشي في الغرفة، وأسدلت الستائر على ليل مسقط ولم تنم، تغوص عينها بداخلها وترى قلبها على شكل مثلّث، تبدأ الذكرى تصعد من قاعه حتى تهزّ أضلاعه الثلاث، وتنهمر الكلمات، كلّ الكلمات التي قالها لها منذ رأته لأوّل مرّة في مدرج المحاضرات وحتى مكالمات الهاتف الطويلة، وتنهار أضلاع المثلّث، تسحقها الكلمات وتتحوّل إلى فتافيت صغيرة، تخرج عينها من داخلها ولا ترى شيئًا، تردّد كلمات حنان: «لت ات جو!!» كأنّها مقطع من

فيلم أجنبي. غدر الحبيب فتركته البطلة ونسيته فورًا بعدما قال لها شخص ما: «أوه دير.. لت ات جو»، وانتهت السالفة، وقلبت البطلة الصفحة، فلماذا لندن تنكسر يدها تحت ثقل الصفحة ولا تستطيع قلبها؟ لماذا يعتصرها هذا الألم المبهم العنيف وهذا الشعور المذلّ بالشوق والفشل؟ تتقلّب لندن ولا تنام ولا تقلب الصفحة.

عادت ظريفة من عرس أسماء منهكة من الرقص والغناء والخدمة، لكنّها وجدت التاجر سليمان مستيقظًا بانتظارها، إنّه يحبّ خاصّة أن يأخذها بعد الأعراس لزينتها ولروح التجاذب التي تشعّها أجواء الزواج الجديد. كانت ظريفة ترغب في الراحة، لكنّها أرضته على عجل فنام، ظنّت بأنّها ستخمد فورًا لكنّ ضيقًا ما برح يخالجها، لم تعد الأعراس تبهجها كما كانت، ومهما تباهت بدقّة خطواتها في الرقصة الجماعيّة فإنّها حقًّا قد ثقلت، ثم ماذا في العرس غير خدمة المدعوّات بالطعام والشراب ثم الرقص والغناء والنميمة؟ إنّ المتعة الحقيقيّة ليست في الأعراس وإنّما في حفلات الزار. تكون قد ثملت من الشواء والشراب والطبول العنيفة فتغيّبها النشوة في حالات شتّى، قد تمشي على الجمر المتّقد، أو تستلقي تحت سنابك الخيل أو تتقلّب في التراب وسط حلقات الرقص الجنونيّة، وأمّها ـ فليرحم الله أمّها ـ كانت هي الماما الكبيرة، قيّمة الحفل والقائمة عليه، والمخاطبة المباشرة للجانّ المتّصلين بالإنس المتمرّغين على الجمر، فليجلدها التاجر سليمان بعد غيابها ليومين أو ثلاثة في حفلات الزار، فليتّهمها بأحد عبيده، فليلعن أمّها سليلة

العبيد الآبقين، إنّها لا تستطيع التوقّف عن هذه النشوات المستعرة، حتى حبيب لم يستطع منعها عن الذهاب، كانت تترك له سنجر رضيعًا وتتسلّل في الليل برفقة أمّها، تقول لنفسها إنّه لم يفرح قطّ ولا يريد للناس أن تفرح، لولا ولده العاقّ هذا لنسيته إلى الأبد، كان أصغر منها بكثير، وورث عن أمّه بياض البشرة والطول، فكانت ظريفة تشعر وهو يضمّها إليه بأنّها في حضن أحد المراهقين من أولاد الشيخ سعيد الذين عبثوا بها في فجر مراهقتها قبل أن يشتريها التاجر سليمان. أبدت له نفورها بكلّ سبيل، حتى تركها قبل أن تفضحه وتفعل مثلما فعلت أمّها مع زوجها نصيب، ثم لم يلبث أن هرب، ظنّت بأنّها تخلّصت منه ومن صراخه في عمق نومه: «نحن أحرار أحرار»، ومن هذياناته عن الجثث التي أُلقيت في البحر، وعن القراصنة وداء الرمد، وإذا بابنه يطلع مثله، سيهرب عاجلاً ويحرق قلبها بالحسرة، يا ليتها لم تلده، يا حسرتها على الأيّام المتّصلة التي بقيت فيها في المخاض في سبيل ولادته المتعسّرة، جرّبت أمّها كلّ شيء لتسهيل ولادتها: سقتها الزيت المعطّن المتخثّر، والماء المخلوط بتراب قبر، وماء تراب مسجد مهجور، وسقتها السدر المذاب، والعسل الذي قرأ عليه القاضي يوسف سورًا من القرآن، وأخيرًا نكّستها، واضعةً رأسها على الأرض وقدميها في الأعلى، وحين يئست منها قالت لها: جدّتك ماتت على ولادة والموت حقّ، لكنّ ظريفة لم تمت ولم يمت الجنين، إذ أدخلت عنكبوتة كامل يدها في عنق الرحم وسحبت الجنين المزرقّ وصفعته عدّة صفعات حتى انبعثت فيه الحياة فحنّكته

بتمرة ورمته في يدي حبيب، ثم دفنت المشيمة أمام مدخل البيت بعد أن نثرت عليها الرماد والملح، فرشت الرمل الناعم تحت ظريفة، سقتها الحلبة بالسمن، وضعت سكّينًا عند رأسها لإبعاد السحر عنها، ثم ذهبت إلى بيتها لتنام بعد سهر دام عدّة ليال.

ها هو المؤذّن النازح من سمائل قد أذّن الفجر، يجب أن توقظ التاجر سليمان ليصلّي جماعة في المسجد، وأن تبدأ بالعجين لخبز إفطاره، ولكن من هي جدّتها التي ماتت على ولادة؟ إنّها لا تكاد تعرف شيئًا عن أجدادها. سمعت أنّ جدّها لأمّها قد هرب، وهذا كلّ شيء، لم يشغلها السؤال عنهم في الماضي ولا يشغلها الآن، أنّى لعين خيالها أن ترى القرية الأفريقيّة الصغيرة التي نام فيها قريرًا جدّها الأكبر قبل أن تُكتب له ولأولاده من بعده مصائر أخرى؟

حين وُلد سنجور في إحدى القرى الصغيرة بكينيا كان السيّد سعيد بن سلطان يوقّع مع بريطانيا الاتّفاقيّة الثانية لحظر تجارة الرقيق، إذ تعهّد السيّد سعيد في الاتّفاقيّة الموقّعة في عام ١٨٤٥ بوقف تجارة الرقيق بين ممتلكاته الأفريقيّة والآسيويّة، كما تعهّد بالسماح لسفن البحريّة البريطانيّة بتفتيش المراكب العمانيّة في المياه الإقليميّة لعمان، وفي جميع أنحاء الخليج العربي والمحيط الهندي، وبإلقاء القبض على المراكب المخالفة ومصادرتها. لكنّ سنجور لم يكمل العشرين من عمره حتى كان هدفًا للقنّاصة من القرى الأخرى الأكثر قوّةً، الذين تسلّلوا إلى قريته الغافية في الظلام، وأعدّوا الشراك في عمق الغابة، وحين ذهب سنجور

للاحتطاب في الفجر وقع في الشرك الذي التفّ عليه كقفص فتلقّفه القنّاصون وعادوا به مع آخرين كغنيمة.

تمّ تجميع العبيد في كلوا، ثم شُحن مائتان وسبعة وسبعون عبدًا منهم على سفينة إلى زنجبار، استغرقت الرحلة ثلاثة أيّام بلا طعام أو شراب، وحين وصلت السفينة إلى نقطة تجمّع سرّيّة على ساحل قريب من الميناء كان ستّون عبدًا قد ماتوا وأُلقيت جثثهم في البحر، وقد قام التجّار، وهم مزيج من العرب والأفارقة، بدفع الضريبة وهي دولاران عن كلّ رأس. أفرغت السفينة حمولتها من العبيد في الساحل بانتظار أن تبحر سفينة البوم الصوريّة من ميناء زنجبار، في أثناء فترة الانتظار استغلّ التجّار الفرصة لعقد الصفقات مع بعض الإنجليز مالكي مزارع القرنفل، فرجع هؤلاء إلى مزارعهم بأكثر من مائة عبد.

بعد بضعة أيّام خرجت سفينة البوم من ميناء زنجبار بعد أن باعت كلّ حمولتها من الأسماك المجفّفة، اجتازت بنجاح سفن التفتيش البريطانيّة، وواصلت سيرها حتى نقطة التجمّع السرّيّة على الساحل حيث شُحن من بقي حيًّا من العبيد القادمين من كلوا وممّن لم يشترهم الإنجليز بمن فيهم سنجور الذي بدأ يعاني من الهلاوس. كان ربّان السفينة يحتفظ في قمرته بأكداس من الأعلام الفرنسيّة التي حصل عليها من السلطات الفرنسيّة في عدن، والتي قام برفعها على سفينته لتجنّب تفتيشها من سفن تتبع البحريّة البريطانيّة قد يلاقونها في عرض البحر بصورة فجائيّة. وحين

وصلت سفينة البوم بأمان إلى ميناء صور في نهاية شهر أغسطس مع هبوب الرياح الموسميّة الجنوبيّة الشرقيّة كان سنجور قد شُفي من هلاوسه ومن دوار البحر وبدأ في تعلّم العربيّة.

قام التجّار باقتسام العبيد، ولم تنته المنازعات بينهم حتى اليوم التالي. أمّا ربّان السفينة المستفيد من تضارب المصالح بين فرنسا وبريطانيا فقد خبّأ الأعلام الفرنسيّة بعناية في بطن قمرته وذهب إلى بيته قريرًا. حين اتّفق التجّار في الصباح تمّ نقل العبيد في مجموعات إلى بيوت مكوّنة من طابقين أو ثلاثة، صعد سنجور مع مجموعة من العبيد إلى الغرف العلويّة، كانت نوافذها ضيّقة طويلة تسمح للهواء بالدخول من جميع الجهات، ورغم أنّ الطوابق الأرضيّة كانت تُستخدم كمخازن ولا يسكنها أحد فإنّها كانت مأوى لبعض العبيد المشاغبين.

في الليل أصبحت الحرارة لا تُحتمل فسُمح لجميع العبيد بالتوجّه إلى السقف للنوم في الهواء الطلق، كانت الرياح ما تزال تهبّ من جهة البحر لكنّ الحرّ كان خانقًا ممّا دفع سنجور لترطيب كامل جسده بالماء، كانت عيناه محمرّتين ولكنّه لا يبكي، لم يعد يفكّر في الماضي ولا في المستقبل، كان يريد أن ينام على أرض ثابتة فقط.

بعد بضعة أيّام تمّ إلحاق سنجور بمجموعة صغيرة أُرسلت إلى ساحل الباطنة المحتاج للأيدي العاملة في الزراعة، لكنّ بقاءه هناك لم يطل إذ تمّ شراؤه من قبل أحد الشيوخ في العوافي، فعمل

سنجور في الخدمة في بيته ومزرعته وتزوّج إحدى إمائه، وحين مات في الأربعين بالسلّ كان قد خلّف بنتين ماتتا بالسلّ أيضًا وصبيًّا تزوّج وأنجب صبيانًا وبنتًا واحدة قبل أن ينضمّ لعصابات قاطعة للطرق ويختفي، وهكذا نشأت ابنته عنكبوتة بعد أن بيع إخوتها جميعًا يتيمة في بيت الشيخ سعيد الذي استلم للتوّ مقاليد المشيخة من أبيه وهو لمّا يصل للسادسة عشرة من عمره المديد جدًّا.

قال خالد بعد أن تلت عليه عروسه أسماء النصّ الذي حفظته منذ صغرها عن الأرواح المشطورة التي تبحث عن شطرها المنفصل لتكتمل: «كتاب عربي قديم به هذا النصّ؟.. لعلّه طوق الحمامة».

قالت أسماء: «طوق الحمامة؟ من كتب كتابًا بهذا الاسم الجميل؟».

ابتسم عليّ: «فقيه أندلسي اسمه ابن حزم... وأظنّ هذا النصّ منه».

مالت إليه أسماء: «وهل تظنّ أنّ أرواح الناس فعلاً يا خالد كانت موحّدة ثم انفصلت؟».

ضحك: «يا أسماء إنّه يستند على أسطورة قديمة: كان الناس جنسًا واحدًا: ذكرًا وأنثى في الوقت نفسه وهم أبناء القمر، لكلّ إنسان أربع أيد وأربع أرجل ورأسان، ولكنّ الآلهة خافت من نفوذ هؤلاء الناس فشطرتهم شطرين وبقي مكان السرّة في البطن تذكيرًا لهم بهذا الانفصال، وهكذا أصبح الناس جنسين ويبحث كلّ شطر عن شطره الضائع ليتّحد به من جديد!!».

همست: «وأنا شطرك المنفصل عنك؟».

ضمّها بقوّة: «الذي وجدته أخيرًا».

كان قد حكى لها كيف وقع في هواها بمجرّد أن رآها، غير أنّ أسماء لم تحتج لكثير من الوقت حتى تدرك أنّ الناس ليسوا أشطارًا تبحث عن أشطارها الأخرى لتكتمل، لا الأجساد ولا الأرواح أُكر مقسومة، ولا يوجد زوجان تلتصق أرواحهما كما يلتصق شطرا الكرة المقسومة، وفوق ذلك ليست هي بكلّ تأكيد شطر خالد المنفصل عنه الذي قال إنّه وجده أخيرًا.

خالد فلك مكتمل، يعرف تمامًا ماذا يريد، ولديه كلّ شيء: العائلة المحبّة، والشهادة، وفنّه الذي يقول لأسماء إنّه عالمه الداخلي، وعمله. وحين انجذب لأسماء وهي تتأمّل لوحاته بعيون دهشة كان قد قرّر الزواج بامرأة على شيء من التميّز قياسًا بالأخريات. فعل ذلك لأجل أن تدور هذه المرأة في فلكه المكتمل لا لأجل أن تشكّل فلكًا موازيًا لنفسها، وهكذا فقد شجّع أسماء على إكمال تعليمها في المدارس المسائيّة حين صدر القانون الذي يمنع المتزوّجات من دخول المدارس الصباحيّة النظاميّة مع بقيّة الطالبات. شجّعها على تنمية ميولها العميقة للقراءة، وحين حصلت بتفوّق على دبلوم المعلّمات شجّعها على العمل لتكتمل بكمالها وجاهته الاجتماعيّة وثقته باختياراته. كانت زوجة تصلح للمباهاة، تضفي اللمسة النهائيّة لقبوله اجتماعيًّا. الزوجة الحرّة في حدود فلكه وليس خارجه.

أسماء اكتشفت كلّ ذلك بسرعة ولكن بهدوء، وحين أتمّت

اكتشافها كانت قد طوّرت تجاهه مشاعر شتّى من المحبّة الشائكة. مشاعر متوازنة وصلبة. مشاعر مختلفة تمامًا ومحبّة مختلفة تمامًا عن طريقته هو وعن محبّته هو، في البداية كان حريصًا أن يظلّ في الدائرة التي رسمها لنفسه، كان حريصًا أن تدور أسماء معه في الفلك، وأكثر حرصًا ألاّ تخترق هذا الفلك، ووقع في حبّها، بطريقته. تمرّ الأيّام واشتعاله تجاهها لا يهدأ، يرفعها إلى سماوات عجيبة ومضيئة بوهج حبّه وتألّق فطنته وحدّة عقله، لكنّ أسماء التي لا تشبه الفراشات لم تندفع للوهج حتى الاحتراق بل حسبت المسافة جيّدًا، إذ أرتها التجربة كيف يخبو ويركض إلى جحره ويرسم دائرته حوله من جديد ويبدو وكأنّه نسي أسماء تمامًا، يظلّ داخل دائرته أيّامًا، أسابيع، أشهرًا أحيانًا، وفجأة يحبّ أسماء من جديد، يعشقها من جديد، ويعذّبها عشقه ويدخلها فردوسًا جحيميًّا وعالمًا صعبًا من اللذائذ المطلقة. كم انتشت بحبّه في أيّامهما الأولى، كم عجبت أن تعمّر أيّام قليلة بما لا تعمّره سنون طويلة في الحياة، وأحبّته، بظمأ لا تعرف كيف انفتحت فوهته وبشوق لكلّ عاطفة. لكنّها ـ خلافًا له ـ لم تكن مندفعة ولا قلقة ولا متعجّلة لمسرّات الحبّ في نفس واحد، فحين هدأ هو، كان حبّها هي يتحسّس جذوره الراسخة في الأرض، وينمو ورقةً ورقةً وغصنًا غصنًا. وحين دخل قوقعته لفّتها الحيرة في البدء وكادت تقضي عليها، لكنّ أسماء، بمرور الوقت وتراكم الخبرة والإفادة من ذكائها وحسّها الاجتماعي، تعلّمت أن تتكيّف وأحبّته، محبّتها تلك الشائكة العميقة المتمهّلة، لكنّها حرصت أشدّ الحرص ألاّ تكون

مجرّد نجم في فلكه وأن يكون لها هي أيضًا فلكها الخاصّ. وبكثير من الصبر والاحتواء والتنازل أحيانًا تسامح كلّ منهما مع فلك الآخر وجاوره، فإذا ما ارتطم الفلكان أو توحّدا عرف كلّ منهما أنّ الاصطدام والاتّحاد عابران وأنّ كلّ فلك سيعود وحيدًا ومستقلاًّ. بعد السنوات والأطفال ومزيد من الأصدقاء والكتب تسامحت أسماء مع فنّه. تسامحت مع جحره. تسامحت مع الدائرة التي يرسمها حوله وينكفئ داخلها على خشب يلوّنه بفرشاته. تسامحت مع عيون الخيول الغاضبة وأجسادها الرشيقة وتشنّجات عضلاتها الحادّة. تسامحت مع ألوان الأفراس البنّيّة والسوداء والبيضاء، صالحتها كلّها مقابل مصالحة الفنّان لها كفلك قائم بذاته.

حين سيأتي أطفالها، ستصمّم سريرًا عريضًا جدًّا، وستحتويهم كلّهم فيه، ليناموا متداخلي الأطراف كأنّما ينبتون من جسدها المغروس وسطهم. أقنعت الفنّان أنّ حضن الأمّ لن يعود حضن حبيبة مرّة أخرى، إذ دمغته الأمومة، وصيّرته حليبًا وأمنًا ودهن عود وندّ في أنوف الصغار وأفواههم.

مع كلّ ولادة جديدة يزداد يقينها بأنّ هذا ما خُلقت لأجله: أن تسمع صرخة الحياة الحادّة منطلقةً من الأجساد الدقيقة الخارجة منها للتوّ، مرّة تلو المرّة، حتى يكفّ جسدها عن صنع الحياة.

وهكذا، حين بلغت أسماء الخامسة والأربعين من عمرها، كان جسدها قد أنبت أربع عشرة نبتة، عاشت كلّها للضوء واللون في بيت الفنّان وإن تناءت عن ريشته المسكونة بسبك الخيول.

في ٢٠ مارس ١٩٨٦ كانت لندن في الخامسة من عمرها، وكان لسالم سنتان حين وقع أبي في نوبته القلبيّة الأولى. وفي ٢٦ فبراير ١٩٩٢ توفّي في مستشفى النهضة ولابني المتوحّد محمّد سنة واحدة.

عشت طوال هذه السنوات الستّ في رعب متّصل من فكرة موته، وحين مات أحسست أنّه فعل ذلك مرارًا من قبل، لدرجة أنّ موته لم يرحمني ولم يزحزح رعبي. في الأسابيع الأولى التي تلت موته لم أستطع النوم من شدّة الغضب، كان الغضب يتسلّل مثل عود ثقاب في دمي ويحرقني. رسمت المشهد في عقلي مرارًا: أنا واقف بجانب سريره وهو مغطّى بشرشف أبيض، رائحة المطهّرات تملأ المكان، الناس يتوافدون على الغرفة البيضاء، يسحبونه من السرير، يُركبونني إحدى سيّاراتهم، لا أحد يعزّيني، فالميّت يجب أن يُدفن أوّلاً. نصل إلى العوافي، يُدخلونه البيت، أسمع صراخ ظريفة، يجهّز الناس دلاء الماء، يفرشون الدعن في الحوش الغربي وينصبون الستور، يُدخلونني مع جثمان أبي لأغسله بنفسي، يناولني

عزان والد ميا الماء والسدر ويعلّمني كيف أفرك أعضاءه عضوًا عضوًا، يساعدني عبد الرحمن ابن القاضي يوسف في تجفيفه وتطييبه وتكفينه، يرفعه الناس على النعش ويضعون إحدى حوافّه على كتفي، نسير إلى المقبرة غرب العوافي، أسمع التهليل والوشوشات، يحفر سويد القبر، ينزلني عزان في القبر لأستلم جثمان أبي وأضجعه على جانبه الأيمن، أحسّ بطراوة التراب، أخرج من القبر فيضع الناس الحصى ثم يهيلون التراب، وأخيرًا يثبّتون حصاة كبيرة عند موضع الرأس ويعودون إلى العوافي.

في مجلس العزاء يصافحني الناس ويسألون الله أن يحسن عزائي فأردّد: «البقاء لله»، تدور على المعزّين فناجين القهوة وصواني الأرزّ واللحم، وحين يهبط الظلام أعود إلى البيت، إلى غرفة أبي وقد ألجمني الغضب. ثم انقضى العزاء بعد سبعة أيّام متشابهة.

بعد سنوات ستدخل تفاصيل أخرى في هذا المشهد، سأرى بطن أبي يرتجف قليلاً تحت دلاء الماء البارد، سيصنع الماء بركة تحت الدعن المفروش في الحوش، وستسيل البركة في كلّ حواري العوافي، ستفوح رائحة السدر والحنوط في الحواري المبلّلة، سأرى إصبع أبي السبّابة ترتفع قليلاً فيظهر نتوء بسيط في قماش الكفن الأبيض، سأرى يده تزيح الحصى والتراب وتبقى وحدها خارج القبر، وسأرى ظريفة تبتر رجليها بنفسها وتنتف شعر رأسها الأبيض.

كان زحل مستقيمًا وكان الرجل الواقف وحيدًا في الصحراء مستعدًّا.

أعدّ دخن زحل: الزعفران، وقشور الكتّان، ووسخ الصوف ومخّ السنّور. كان قد تأكّد من قبل أنّ الطالع برج متقلّب، والقمر أيضًا في برج متقلّب، وزحل والمرّيخ ناظران إلى القمر، تنفّس الرجل الصعداء، ومض بخاطره وجه المرأة في الظلام خارجة من بيته وهو يناديها بعروس الفلج.

أصبح زحل الآن في وتد السماء ناظرًا إلى النيّرين، وأسقط النيّرين بعضهما عن بعض.

مزج الرجل الدخن: الزعفران والقشور والمخّ ووسخ الصوف وأحرقه بخّورًا بين يديه، ثم ارتدى ثيابه مستعدًّا للاتّصال بزحل.

كان النصف المقابل من ثوبه لزحل ديباجًا أسود وأخضر، وفي يده من جانب زحل سوار من حديد، وقد أخذ بيده تلك عظمًا.

انخرط الرجل الوحيد في الصحراء في ندائه الحارّ: «يا أيّها السيّد العظيم الراجل القاهر الجبّار القادر العفريت العظيم الشان العالي المكان الكبير الرفيع منبع العقل الصافي والفهم الوافي، ناسخ النظر كبير الخطر، الملك المؤيّد والسلطان المفني الزمن، المؤلم المظلم زحل النجم البارد اليابس الصادق المودّة العزيز المحبّة كثير العقد طويل الكيد عظيم الغضب قوي الحسد ذو الفضل الكامل متمّم الوعيد والتعب والنصب والي الشقا معطي النعم ومعدن الحزن المغضب الكبير المختال المكّار الغدّار الشيخ

القديم الساكن المتنزّل ويل لمن نحسته وتعسًا لمن أبغضته أسألك أيّها الأب الأوّل بحقّ آبائك العظام وأصحابك الكرام وبحقّ خالقك ومقدّرك مدبّر الكلّ ومنشي العلويّات والسفليّات ومالكها إلاّ قطعت نجيّة بنت شيخة عن عزان بن ميا بحقّ هذه الأرواح الروحانيّة، وفرّقت بينهما كافتراق النور والظلمة، وألقيت بينهما العداوة والبغضاء كعداوة الماء والنار، أسألك أيّها الأب الأوّل إلاّ عقدت روحانيّة شهوة عزان بن ميا عن نجيّة بنت شيخة وأخذتها بقوّة هذه الأرواح الروحانيّة كعقد الجبال الصلبة وصخورها».

بعد زواج أسماء أصبحت خولة لوحدها في البيت مع أمّها، وفي أحيان نادرة ينضمّ أبوها لهما ساهمًا، ورغم أنّ أمّها لم تعد حادّة معها فإنّ خولة كانت تضيق بالحياة يومًا بعد يوم، وتنسحب إلى داخلها أكثر فأكثر، ازداد اعتناؤها بشكلها وجمالها حتى كاد أن يتحوّل إلى هوس، وانتظرت ناصر بيقين لا يقبل الريب الذي يحاول الناس أن يزرعوه بداخلها، إنّها فرجيني في قصّة بول وفرجيني، وليلى في قصّة المجنون، وجولييت في قصّة روميو وجولييت، وكلّ اللواتي أحببن إلى الأبد، وضحّين في سبيل الحبّ الصادق. والشيء الوحيد المقنع من الأشياء التي تتثاقف بها أسماء عليها هو حكايتها عن الأرواح المقسومة التي لا ترتاح إلاّ إذا اتّحدت، مع أنّ خولة اكتشفت أنّ هذا النصّ ليس في كتاب طوق الحمامة وإنّما في كتاب آخر أقلّ شهرة هو الزهرة، لكن المهمّ أنّ ناصر هو نصفها، وسيعود، وعاد.

كان عليها أن تنتظر خمس سنين أخرى وترفض عشرة عرسان على الأقلّ حتى عاد لها ناصر. عاد لها أو هذا ما بدا لها، لكنّه

في الحقيقة قد عاد حين أفلس تمامًا في كندا، كانت بعثته الدراسيّة قد قُطعت منذ سنوات فعاش على المصروف القليل الذي كانت أمّه ترسله سرًّا له، وعلى وظائف صغيرة لا يلبث أن يتركها، ثم ماتت أمّه وطُرد من آخر وظيفة، فاضطرّ للعودة، وحين عاد وجد أمّه تشترط في وصيّتها أن يتزوّج خولة ليحصل على إرثه، فتزوّجها، وحصل على إرثه، وعاد بعد أسبوعين من العرس إلى كندا.

قبل وفاة أمّه كان قد استقرّ مع صديقة له في بيت صغير بمونتريال، وبعدما عاد إليها من عمان لم يجد داعيًا لإخبارها بزواجه، فاستمرّ في حياته معها عشر سنين أخرى كان يعود خلالها إلى عمان كلّ سنتين ليرى طفلاً جديدًا في بيته ويترك خولة حاملاً مرّة أخرى.

تشبّثت خولة بحلمها بشراسة، لقد عاد إليها ولن تفقده ثانية، وكلّما ازداد صبرها على هجره عظمت في عين نفسها، رأت حياتها المعذّبة مثالاً على الحبّ العظيم المتفاني الذي لا يكسره أيّ شيء حتى قسوة الحبيب الذي ما إن يأتي إلى عمان حتى يستغرق في مكالمات الهاتف الطويلة، الذي يعلّق صورة صديقته الكنديّة في علاّقة مفاتيح سيّارته، الذي يحضر لأولاده ملابس فاخرة من كندا ولكنّها دائمًا أصغر من مقاساتهم.

قالت خولة لأخواتها وأمّها حين عاتبنها: «إنّه يشتغل هناك، ولكنّه سيرجع بلده في النهاية، وسيعقل، ويرجع لامرأته وأولاده

وبيته، أصله الطيّب سيردّه». وحين تحقّق حلمها وهجرته البنت الكنديّة وطردته من البيت في مونتريال كان قد مرّ على زواجه من خولة عشر سنين، فعاد، ووجد عملاً جيّدًا في إحدى الشركات، وبدأ يتعرّف على خولة وأولاده.

كانت لندن في حوالى العاشرة، ميا تصطحبها بانتظام إلى «مكتبة العائلة» وتشتري لها كتب الأطفال الإنجليزيّة، وعلى الرّغم من انتشار المكتبات وقتها ظلّت مكتبة العائلة أقدمها وأهمّها. لم تعد مخلصة للهدف الذي أنشئت من أجله في أواخر القرن التاسع عشر، حين كانت متجرًا يبيع الأناجيل في إطار سعي الإرساليّة الأميركيّة للتبشير في عمان، فقد سرى الانطباع أنّ مكتبة عامّة تُباع بها كتب متنوّعة ستكون أكثر جذبًا للقارئ العادي من متجر لبيع الأناجيل، وهكذا اختير اسم المكتبة وتوسّعت وحاولت فتح فروع أخرى لها منذ أواخر السّتّينيّات. وقد أدّى طابعها العلماني الذي اكتسبته بمرور الوقت إلى انتقادها من قبل مجلس كنائس الشرق الأوسط الذي قام بجهود كثيرة للعودة بالمكتبة إلى التزاماتها التبشيريّة، لكن ميا لم تكن تعبأ بذلك كلّه، كان لديها هدف وحيد وواضح: أن تتمكّن لندن من القراءة بالإنجليزيّة. ثم أصبح هدفها فيما بعد أن يتحدّث محمّد، وبعد إكماله خمس سنوات أثمرت جهودها وبدأ محمّد أخيرًا في التحدّث، لكنّ استخدامه للكلمات كان مختلفًا عن الأطفال الآخرين، وهكذا ظلّ تواصله معنا معتمدًا

أساسًا على الإشارات، ورغم أنّ الأطبّاء أوضحوا لي أنّ مرض التوحّد غير وراثي ولا يرتبط بعامل بيئي، فإنّ غموض الأسباب دفعني وميا إلى اتّخاذ القرار بعدم إنجاب أطفال آخرين. عندما أراه أحاول التفكير بطفولتي، كيف كنت أشعر وأنا في عمره؟ لكنّ كلّ ما يطفو على ذاكرتي مرتبط بالبيت الكبير الذي كان مبنيًّا بالجصّ ثم أعاد أبي بناءه بالإسمنت وأضاف له الملحقات الكثيرة. أتذكّر ألوان الكرات التي لم يكن مسموحًا لي اللعب بها في الشارع مع الأولاد، والمرايا الصغيرة المشعّة في جبّتي الهنديّة، والقامة الفارهة لامرأة عمّي قبل أن ينتقلوا إلى وادي عدي، والأساور الذهبيّة الغليظة في يد عمّتي، ورائحة خبز الرقاق تخبزه ظريفة، وقرن الفلفل في فمي يوم تزوّجها حبيب. قال أبي: «اشتريتها بعشرين قرشًا». في أوج الأزمة الاقتصاديّة شوال الأرزّ المستورد من كلكتا أو مدراس في الهند بمائة قرش، وظريفة بعشرين قرشًا، قرش ماريّا تيريزا الفضّي، الذي لا يمكن تزييفه لنقاء فضّته، الذي كان أبي يحتفظ بعشرات منه في الجراب الجلدي المربوط في حزامه، لطالما استهزأ بالريالات الورقيّة حتى اضطرّ للخضوع لها.

أظهرت ميا شغفًا بالريالات، قالت لي إنّ حلمها هو أن نملك أكثر ما يمكننا امتلاكه منها لنترك العوافي ونبني بيتًا جميلاً في مسقط، لكنّ أمّها طلبت منّي ألاّ آخذها إلى مسقط. امتعضت ميا، قالت إنّها لن تعيش طوال حياتها تحت سطوة أمّها كما أعيش أنا تحت سطوة أبي. وحين انتشرت الشائعات عن اختفاء البدويّة الفاتنة عشيقة أبيها، قالت ميا: لأمّي علاقة بهذا. ولكن كيف يكون

لأمّها التي لا تخرج من بيتها علاقة باختفاء البدويّة؟ قال البعض إنّها مرضت مرضًا غامضًا تساقطت منه أعضاء جسدها الجميل وتآكلت قبل أن تختفي، وقال آخرون إنّها باعت بيتها وإبلها واستقرّت في مطرح لتتاجر بالمشغولات اليدويّة، وقال آخرون إنّها جُنّت فجأة فحملتها صديقاتها إلى مستشفى ابن سينا، وقال آخرون إنّ جيرانها، الذين حوّلوا الدشّ في بيتهم ذي الطابقين إلى إناء ضخم تأكل منه أغنامهم البرسيم، ردّوا على سخريتها منهم بتدريب أخيها المنغولي على رمي الرصاص، أفهموه أنّ أخته عار عليهم كلّهم، وعلّموه كيف يتحكّم بالمسدّس، ودفنوا جثمانها سرًّا بالليل تحت عرق الرمل.

سألته أسماء: لماذا ترسم يا خالد؟

لأتخلّص من الحياة في حدود خيال أبي، وأصيغها في حدود خيالي أنا.

منذ طفولتي حتى أوائل عشرينيّاتي وأبي يحدّدني وفق محدّدات خياله، كانت له طاقته الخياليّة الواضحة، وكنت أنا وقود هذا الخيال، وكلّ تصوّراته عليّ أن أكون تجسيدًا لها.

أصبح الفنّ بالنسبة لي ضرورة كالماء والهواء، منذ أدركت أنّني لن أستطيع الحياة بدون خيالي الخاصّ. الخيال يا أسماء مثل الفنّ يمنحني قيمة لوجودي، ومهما كان الواقع جميلاً فبدون الخيال تصبح الحياة، ببساطة، غير محتملة.

هل ترين حركة الناس الظاهريّة في الحياة؟ إنّها الجزء الظاهر من جبل الثلج العائم، الجزء الغاطس، الجزء الأعظم هو حركتهم الداخليّة، عوالمهم الخاصّة وخيالهم. حين تحرّرت من العيش في خيال أبي صنعت خيالي الخاصّ بالفرشاة، أطلقت شعري ولحيتي ولبست الجينز الممزّق وتركت كلّيّة الهندسة من أجل كلّيّة الفنون الجميلة.

كنت أرسم أحيانًا حتى يُغمى عليّ من الإرهاق، وحين أمشي في الشارع أحسّ أنّ يدي ناقصة لأنّها لا تحمل الفرشاة. كانت الفرشاة جزءًا من يدي ينمو معها ويتنفّس. عشت في لوحاتي، وأصبح الخارج لا يعنيني ولا يكاد يلمسني، فأنا مكتفٍ بخيالي، وطاقتي للرسم كانت جنونيّة. كنت كالمحموم، أعيش في الأرق والهذيان والتوحّد المطلق بالفنّ.

الفنّ يا أسماء أنقذني من صياغة أبي لي وفقًا لخيالاته. عيسى المهاجر يا أسماء لم ينس أنّه المهاجر، حمل تاريخه كقدره، وعمل بكلّ دأب على أن يحمل ابنه البكر هذا التاريخ، وأن يكون هذا الابن انتقامه المشهر في وجه الهزيمة والإحباط والغياب القسري عن الوطن الذي خذله.

عيسى المهاجر كان يغمض عينيه كلّ يوم ويفتحهما على حقيقة هويّته، يخرج في شوارع القاهرة، يسامر المصريّين، يُدخل أبناءه الجامعات المصريّة، ولا ينسى لحظة واحدة أنّه عيسى ابن الشيخ عليّ الذي حمل هَمّ عمان على كتفيه، الشيخ عليّ كان من ضمن الوفد المرافق للشيخ عيسى بن صالح سفير الإمام يوم وُقّعت معاهدة السيب الشهيرة بين الإنجليز والسلطان من جهة والإمام والقبائل المتحالفة معه من جهة أخرى. لم ينس فرح أبيه بالمعاهدة التي أتاحت لهم حرّيّة الحركة في الداخل، والتأثير على مزيد من القبائل، ونشر الأفكار الداعية للتوحّد والتنظيم تمهيدًا لمقاومة الإنجليز. أرّقت عيسى المهاجر كلّ تفاصيل تاريخه وهويّته، حكى

لي مرارًا عن أرواح أجداده التي تمثّلها بكلّ إخلاص، جدّه الأكبر الشيخ منصور بن ناصر كان من ضمن الفرسان الذين حاربوا مطلق الوهّابي في غاراته المتكرّرة على العمانيّين، شارك في الواقعة التي استمسك أثناءها العمانيّون بسيوفهم حتى تيبّست أيديهم عند حلول الليل. أعلنت النساء عبر الغناء أنّهنّ نقعن الأيدي المحاربة في الماء حتى أفلتت السيوف، ودخل اسم الشيخ منصور خاصّة في أكثر من أغنية ظلّت النساء تهزج بها في الأفراح وقتًا طويلاً، أغانٍ تتحدّث عن الشجاعة الخارقة للشيخ الذي طار به الخيل الأبيض والتصقت يداه بالسيف وأدخلت شجاعته الهلع في قلوب رجال مطلق الوهّابي. عيسى المهاجر حمل أرواحهم، قاتل في الجبل الأخضر إلى جانب الإمام غالب الهنائي، دفن الشهداء بيديه، وحمل الرسائل السرّيّة تحت جنح الظلام، ولمّا انهزموا وتفرّقوا هاجر بجسده فقط، وبقيت روحه المثقلة.

ماذا أراد أن يصنع منّي؟ مقاتلاً؟ شهيدًا؟ شيخًا شابًّا يطعم الطعام ويؤوي الضعفاء؟ شيخًا عصريًّا يختم رسائل طلبات البدو والفلاّحين؟ معارضًا سياسيًّا؟ حين اشتعلت الثورة في ظفار رفض مجرّد الحديث في الموضوع، استنكرها بشدّة: «شيوعيّة؟ مستحيل، لن تصلح عمان بهذا أبدًا».

كلّ ليلة، أتلو كتاب «تحفة الأعيان في تاريخ أهل عمان» للشيخ السالمي بين يديه حتى حفظته عن ظهر قلب، يأخذني معه إلى كورنيش النيل في العصارى ويطلب منّي إلقاء نونيّة أبي مسلم

البهلاني كاملة، أفهمني مرارًا أنّ أبا مسلم البهلاني لا يقلّ شاعريّة عن أحمد شوقي، وأنّه يجدر بي حفظ ديوانه كاملاً وليس النونيّة فقط، كم تساقط دمعه وأنا أردّد:

تلك البوارق حاديهنّ مرنانُ   فما لطرفك يا ذا الشجو وسنانُ
شقّت صوارمُها الأرجاء واهتزعت   تزجي خميسًا له في الجوّ ميدانُ

حتى إذا ما تلوت هذين البيتين طلب منّي إعادتهما عشرات المرّات:

تلك المعاهد ما عهدي بها انتقلتْ   وهنّ وسط ضميري الآن سكّانُ
نأيتُ عنها ولكنْ لا أفارقها   بلى كم افترقتْ روح وجثمانُ

ثم يكمل الأبيات بنفسه حتى يصل إلى:

نزحتُ عنها بحكم لا أغالبه   لا يغلب القدرَ المحتومَ إنسانُ

فيتنهّد ويطلب منّي إكمال القصيدة ويستمع صامتًا.

كان مولعًا بأبي مسلم البهلاني، أوضح لي كيف كانت شخصيّة هذا الرجل النهضويّة متعدّدة الجوانب، غزيرة الإبداع، فقد أسّس أبو مسلم أوّل جريدة عمانيّة في مطلع القرن العشرين، أسماها النجاح وأصدرها من زنجبار حيث كان يعيش. ديوانه هو أوّل ديوان عماني يُطبع، وله كتب أخرى في الفقه والسلوك حرص أبي على امتلاك طبعاتها الأولى. ساند أبو مسلم الأئمّة والعلماء في عمان بقلبه وشعره وكتابته دون أن تسعفه الأقدار بلقاء أكثرهم. تمثّل أبي غربته وتعاون مع آخرين على طبع ديوانه مع بعض الكتب

العمانيّة الأخرى في المطبعة الحلبيّة في القاهرة. قضينا ساعات طويلة ونحن نُعيد ترتيب الأكوام الهائلة من النسخ، دون أن أعرف كيف سيوزّعها أبي ومن سيقرأها؟ أدخلني كلّيّة الهندسة لأنّ المستقبل في عمان سيكون للمهندسين والمحامين. ألمح لي مرارًا بألاّ أسمح لنفسي بمجرّد الإعجاب ببنت مصريّة، قال لي بوضوح: «نحن نعيش هنا، ولكنّنا لسنا من هنا، وامتدادنا لن يكون هنا، وحين نموت ستُحمل توابيتنا إلى عمان لنُدفن هناك».

أرّقني تخيّل البلد الذي لم أكد أعرفه طفلاً حتى رحلت عنه، عذّبتني خاصّة صورة توابيتنا، سوداء وكالحة، مصفوفة إلى جانب بعضها البعض، تابوت أبي، تابوت أمّي، تابوتي، تابوت غالية، تابوت أخي، في بطن طائرة تقوم بالرحلة المستحيلة التي لن نقوم بها أحياء، من القاهرة إلى مسقط، ثم صورة الأموات، نحن، يخرجون من توابيتهم، بأيدي أقارب لم أعرفهم قطّ، ويُدفنون تحت الشمس الحارقة غرب العوافي، في المقبرة الخالية من شجرة واحدة أو حتى نبتة صحراويّة. تمنّيت مرارًا أن يعدل أبي عن حلمه، أن يدفننا في مقابر القاهرة الضاجّة بالحركة والحياة والباعة والتلاوة، أو أن يضعنا أحياء في طائرة ذاهبة إلى مسقط، بدل أن يضع توابيتنا.

حين كففت أخيرًا عن الحياة في حدود خياله عرفت طعم الحرّيّة. تذوّقت كيف يختار المرء الكتب التي يحبّها والأصدقاء الذين يحبّهم والمدن التي يحبّها، وكيف يتحرّر حين يكون نفسه

وليس مجرّد امتداد أو تجسيد لمخيّلة شخص آخر، حتى لو كان أباه. شفيت من نوبات الصداع المتكرّرة، ومن الخوف المرضي من البقاء في مكان مغلق ومظلم، وأدمنت التسكّع في شوارع القاهرة، شوارعي، التي لم أعرف غيرها، ومع أصدقاء حقيقيّين، يهتفون في المظاهرات، ويرسمون، ويحلمون، ويعاكسون، وليس مجرّد خيالات شاحبة لأقارب وأجداد أفذاذ، ضبابيّتهم تقرنهم بشيء يشبه الملائكة، ولا يمكنني رؤيتهم أو لمسهم. سكت عيسى المهاجر، لم يحضر معرضي الأوّل، ولم يقرأ مقالاً واحدًا عن فنّي، وعاملني ببرود أقرب إلى الترفّع واليأس، وحين شرعت في نسيان بلد اسمه عمان، ماتت غالية. لم أعرف أنّ عوالمنا مترابطة إلى هذا الحدّ المخيف، أنا وأسرتي، إلاّ بعد أن ماتت غالية، انهارت عوالمنا كلّنا، أبي وأمّي وأنا وأخي، وأمام السؤال البسيط حول مكان دفنها تكشّفت لي، أنا الفنّان الحرّ، الذي توهّم حرِّيّته، كم كانت الأواصر الخفيّة بيننا عميقة، وكم ينهار عالمي بانهيار عالمهم.

في غضون يومين فقط تحوّل شعر أبي كلّه للّون الأبيض، حزمنا كلّنا حقائبنا، وعدنا، كلّنا، أحياء، ما عدا غالية، الوحيدة التي ظلّلها خيالي الكابوسي، وشملها التابوت في بطن الطائرة.

لم تعد الرحلة إلى عمان، الرحلة المستحيلة، مجرّد تذكرة ذهاب وإياب ندفن خلالها الأخت الحبيبة، ونعود ببساطة إلى القاهرة، إلى بيتنا، وأعمالنا، وأصدقائنا. لا، أصبحت هذه الرحلة

المفاجئة الرابط الخفي العميق، الذي سيخرجنا من الحلم والكابوس معًا، ويحرّرنا من فكرة العودة المستحيلة، ويجعل العودة، ممكنة، وحقيقيّة، وربّما دائمة أيضًا، لكنّ غالية دفعت ثمن تحرّرنا بموتها، كان لا بدّ من قربان، من جسر يمشي عليه أبي، ونمشي خلفه نحن، إلى عمان، وكانت جثّة غالية، تابوتها الذي حُمل إلى مقبرة العوافي الجرداء، تابوت الابنة التي وُلدت في القاهرة، وعاشت فيها، هذا الجسر.

جاءت أسماء العروس لزيارة أبيها الذي صرعته بُعيد عرسها حمّى غامضة لا تهدأ حرارتها، حين رآها عزان اتّكأ على وسادة وطلب منها أن تقرأ له من ديوان المتنبّي، انطلق صوت أسماء خافتًا في البداية ثم ازداد حماسة:

لياليّ بعد الظاعنين شكولُ طوالٌ وليلُ العاشقينَ طويلُ
يُبِنَّ ليَ البدرَ الذي لا أريدُه ويخفينَ بدرًا ما إليه سبيلُ
وما عشتُ من بعد الأحبّةِ سلوةً ولكنّني للنائباتِ حَمولُ

أشار لها أبوها بيده فسكتت، انتبهت لوهن يديه ولشعرات بيض في مفرقه فارتبكت. بدت لها الغرفة حارّة من فرط حرارته، أحرجتها آثار الحنّاء في يديها، تمنّت لو تملك الجرأة لإضجاع أبيها على فراشه وتمسيد شعره، أحسّت أنّ الهواء ثقيل وأنّها تريد أن تعتذر له عن شيء لا تعرفه: أخذت أوراق شجرة النبق تمتدّ عبر النافذة إلى الأعلى، والغرفة تزداد حرارة، ورؤى أطفالها القادمين يتحلّقون حول جدّهم تلحّ عليها، ووجهه الشاحب يغيب. ازداد ارتباك أسماء حتى أنقذتها يده التي ناولتها من تحت الوسادة دفترًا مهترئًا، تأمّلت أسماء العنوان: «من مجالس العلاّمة النحرير

القاضي يوسف بن عبد الرحمٰن»، وحين فتحته انفتح على صفحة عُلِّمَت بعلامة من ورق الشجر، فهزّ لها عزان رأسه، وأخذت تقرأ:

«اعلم أنّ الكواكب كلّها تُفرغ جواهرها في القمر، والقمر يُفرغها في الماء، ومن الماء ينقسم في الجواهر كلّها، والقمر هو الخازن لما في العلوّ والسفل، وينقل من الأعلى إلى الأسفل، والقمر أشبه الكواكب بأمور الدنيا ولشدّة مشابهته بها صار دليلاً على كلّ الأمور، واحفظ حال القمر فإنّ صحّته صحّة كلّ شيء وفساده فساد كلّ شيء، وذهاب القمر إلى كوكب يقوّي ما يدلّ عليه ذلك الكوكب، وانصراف القمر عن كوكب يُضعف ما يدلّ عليه ذلك الكوكب، وإذا كان القمر زائد النور متّصلاً بالمرّيخ فهو أجود ما يكون، وإذا كان القمر ناقصًا في النور واتّصل بزحل أو ذهب إليه فهو أردى ما يكون».

قال الناس في العوافي إنّ امرأة شابّة وقويّة مثل أمّ عبد الله لا يمكن أن تموت خلال يومين أو ثلاثة بلا حمّى نفاس، أكّدت عنكبوتة أنّها حملت من طعام النفساء بانتظام للجنّيّة بقيعة كيلا تؤذيها أو تؤذي المولود، وأقسمت إنّها لم تذق منه شيئًا، كانت تترك الطعام كما هو قرب صخرة الجنّيّة وتذهب بدون أن تلتفت، وقال زيد إنّ المرحومة قلعت شجرة الريحان قبل موتها بقليل ولم تدعه يقوم بهذا بدلاً عنها، وإنّها قالت له إنّ رائحة الريحان تجذب الأفاعي، وهي تخاف على عبد الله بعد أن يكبر ويحبو. قالت أخت التاجر سليمان إنّها حرصت على الإشراف على إعداد طعام النفساء بنفسها، لكنّ لون المسكينة تغيّر إلى الأزرق الكامد خلال أيّام. قال زيد إنّ امرأة مثلها لا يمكن إلاّ أن تكون مسحورة، وإنّه متأكّد ممّا يقول خاصّة أنه يشتغل في سقي الضواحي طوال الليل، ويعرف كلّ أسرار أهل الليل. قال منين إنّها كانت امرأة طيّبة وفي حالها، وإنّها لم تنس أن ترسل إليه حلوى بعد ولادتها. قالت أمّ الشيخ سعيد إنّ كلّ إنسان يقدم في أخراه على ما قدَّم في دنياه، وإنّ الله يمهل ولا يهمل، فحار الناس فيمن تغمز بكلامها هذا، وسكتت ظريفة.

منذ كان صغيرًا وهو يسمع أمّه تروي قصّة المنام الذي رأته وهي حبلى به، والتأويل الذي ساقه القاضي يوسف: «تلدين صبيًّا صالحًا طاهرًا له شأن»، أرادت أن تسمّيه محمّدًا أو أحمد، غير أنّ أخوين له كانا يحملان الاسمين فسمَّته مروان تيمّنًا بأخيها الذي ربّاها. وربّته على أساس قناعة راسخة بصدق منامها، فلقّبته ـ ولقّبه الناس من بعدها ـ بالطاهر، واجتهدت أن تغرس في نفسه حبّ العلم والدين، وأن تدفعه لملازمة الشيخ في المسجد، فنشأ كما اجتهدت: معلّق قلبه بالمسجد، وحفظ مروان الطاهر الحديث الشريف الذي يدلّ على أنّه من الذين يظلّهم الله بظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، لأنّه نشأ في طاعة الله، ولأنّ قلبه معلّق بالمسجد. احتقر لعب الصبيان واهتمامهم بالتوافه، احتقر الاستغراق في اللهو، احتقر الثرثرة وإغفال التأمّل، واستغرق في عالمه الطاهر. وحين هاجر والداه إلى وادي عدي تاركين العوافي، اختارا بيتًا قريبًا من المسجد لينشأ أولادهما عليه ولكيلا ينقطع مروان الطاهر في البيئة الجديدة عن العبادة.

كان ترتيبه الرابع، قبله أحمد ومحمّد وقاسم، وبعده هلال

وعاصم، لكنّه لاحظ اختلافه عنهم مبكرًا جدًّا، ولاحظ افتخار والديه به، وأحاديثهم عنه. انكفأ على نفسه وعزف عن اللعب مع إخوانه وحتى عن تبادل الأحاديث معهم إذ لا تليق به هذه التوافه، هو المبشّر به في المنام، المنذور لأمر عظيم.

كان مروان الطاهر في الثالثة عشرة حين تسلّل في الليل إلى غرفة والديه وسرق النقود من حافظة أبيه، في اليوم التالي ضرب نفسه بعصا أبيه ونذر أن يصوم أسبوعين، بعد ثلاثة أشهر تسلّل إلى غرفة إخوته الكبار وسرق النقود من حافظة قاسم.

حين أتمّ مروان الطاهر عامه السادس عشر كان قد صام ما مجموعه ثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا تكفيرًا عن سرقاته، أقسم الجيران إنّ النور يفيض من وجهه، وإنّ عينيه الصائمتين عن ملاذّ الدنيا الفانية تعكسان نعيم الآخرة الباقية. تدلّهت البنات بمشيته الهوينا، مشية من لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وبعينيه الساهمتين اللتين لم تلتقيا بعيني أيّ بنت، ولم ير أحد آثار الضرب على ظهره جزاء السرقات التي شملت النقود والساعات وقطع الملابس، حتى أقراط أمّه ونعليها، ازدادت ثيابه بياضًا ولم يعد يتكلّم إلاّ نادرًا، وحين شحب وجهه من فرط الصيام لم يعد أحد يشكّ في أنّه وليّ من أولياء الله الصالحين.

حين أتمّ مروان الطاهر عامه السادس عشر كان قد صام ما مجموعه ثمانية أشهر وأربعة عشر يومًا ولكنّه أيقن أنّه لن يتوقّف عن السرقة كما عرف أنّه لا يحتاج بكلّ تأكيد لأيّ شيء يسرقه. لم

يستوعب أبدًا صدمته في ذاته الطاهرة، لم يصدّق أنّه هو نفسه المعتكف في المسجد من يتسلّل ليسرق هذه الأشياء التافهة. وهكذا تمزّق، تمزّق حتى كاد أن يسمع صوت انشراخ أعماقه وانشطارها. اختلطت الأمور عليه، منام أمّه وتضخّم ذاته واللهو التافه ويسرق، هو الذي سيظلّه الله بظلّ العرش يسرق، الطاهر الذي يصون كلّ جوارحه ولا يكاد يرفع بصره عن الأرض يسرق، هو المنذور المبشّر به يسرق، تمتدّ يداه الطاهرتان ليسرق ما لا يحتاج إليه.

لم يبح مروان الطاهر بسرّه، احتقر نفسه بقدر ما عظّمه الآخرون، احتقر الآخرين بقدر ما عظّم نفسه، أصمّ أذنيه صوت التمزّق المدوّي الذي لا يسمعه سواه، اندفع أكثر وأكثر نحو الدائرة المرسومة من حوله، أمعن في التزهّد والصيام والعزلة، وانفطر قلبه من الألم.

لم يبح مروان لأحد، ولم يجرؤ أن يمدّ يديه في عزلته إلى ربّه ليريه الدرب، فهو واثق أنّه يعرف الدرب جيّدًا: هذه الدرب ولا توجد دروب أخرى، هو الطاهر وعليه أن يبقى كذلك، كما عرفه الناس وأرادته أمّه وارتضى لنفسه، ويده هذه السارقة سيقطعها إن عادت لعادتها.

بعد وفاة أبيه وخروج أمّه من العدّة، تسلّل إلى غرفتها وسرق عطرها الجديد وخنجر أبيه الفضّي ومبلغًا زهيدًا وجده على الطاولة، وقبل أن يطلع الفجر بقليل قطع شرايين يده السارقة بنصل الخنجر الحادّ ونزف في خلوته الطاهرة حتى الموت.

في تسعينيّات القرن التاسع عشر دفع التراجع الذي أصاب تجارة التمور في عمان تاجرًا يافعًا يُدعى هلال إلى البحث عن مورد تجاري جديد يتكسّب منه ويستخدم حياله خبرته التجاريّة المتوارثة، فكانت تجارة الأسلحة هي البديل التجاري المناسب، وبرغم أنّ السلطان فيصل قد أصدر عام ١٨٩١ إعلانًا دعا فيه العمانيّين إلى عدم تصدير الأسلحة إلى ميناء جوادر، فإنّ التاجر هلال وأصدقاءه من التجّار تزايد اعتمادهم على الأسلحة كمصدر مضمون للكسب، خاصّة مع حاجة الأفغان للسلاح لحروبهم، فكانت شحنات الأسلحة المهرّبة تُستقبل من قبل التجّار الفُرس على السواحل، حيث يتمّ تخزينها في مستودعات سرِّيّة قبل بيعها إلى رجال القبائل البلوشيّة والأفغانيّة. وعلى الرّغم من أنّ بعض التجّار نجح في تهريب الأسلحة إلى الهند وزنجبار، إلاّ أنّ التاجر هلالاً فضّل التعامل مع الأفغان والفُرس لاعتقاده أنّ ميناء جوادر أكثر ضمانًا من أيّ موانئ أخرى، لكنّ تجارته أُصيبت بانتكاسة بعد ارتفاع الضرائب على واردات السلاح، لتعاود الانتعاش مرّة أخرى في بدايات القرن العشرين حين انضمّ إلى جماعة من التجّار الهنود

تستورد الأسلحة مباشرة من أوروبا وكان على رأسهم كمجي رامداس، وهكذا حين وصلت السفينة البخاريّة جيولدالا إلى ميناء مسقط قادمة من أوروبا في ٢٢ يناير عام ١٩٠٨ كان نصيب التاجر هلال منها خمسين صندوقًا محمّلاً بالذخيرة، وقد استطاع أن يبيع بنادق بوشهار في ميناء جوادر بسعر سبعين دولارًا للبندقيّة الواحدة، ممّا أدّى إلى إثرائه بشكل سريع، ودفعه لمصاهرة أحد الشيوخ في العوافي، غير أنّ ابنه سليمان لم يولد إلاّ بعد مضيّ أكثر من عشر سنوات على زواجه.

ظنّ التاجر هلال أنّ مجيء ابنه فاتحة لمجيء إخوانه من بعده، غير أنّ كلّ صبي وُلد بعد سليمان تلقّفه الموت رضيعًا، فتهامس الناس أنّ سليمان مُصاب بالقاشعة، الداء الذي يؤدّي لقشع أو قتل إخوته من بعده، فكان أن أخذه أبوه إلى الحكيم المختصّ، الذي أقعد الصبي أمامه باحثًا في عظام جمجمته عن العرق الثائر الذي أدّى بشدّة ثورانه إلى قتل كلّ صبي يولد بعده، وحين حدّد الحكيم مكان العرق، صاح بأعلى صوته: «لقيت القاشعة»، وأحمى حديدة على النار وكوى بها رأس سليمان في موضع العرق أو القاشعة، حتى خمدت تمامًا ولم تعد ثانية لقتل إخوانه الذكور، وهكذا عاش للتاجر هلال بكرُه سليمان وولده الأخير إسحاق، وبنت نحيلة شديدة البياض قضت كلّ طفولتها منزوية حتى تزوّجت من أخوين من أبناء أخوالها طلّقاها على التوالي. شابه إسحاق أمّه في تردّدها وانزوائها وورث سليمان عن أبيه كلّ شيء: حنكته التجاريّة، وذكاءه، وقامته المديدة، ووسامته، وبيته الواسع المبني بالجصّ،

وعصبيّته، ولقب التاجر. لكنّ سليمان لم يتاجر بالأسلحة، كان يبدو مشغولاً بالتمور إلاّ أنّ أرباحه الحقيقيّة كانت قائمة أساسًا على الإتجار بالرقيق.

في غرفتها المغلقة التي كانت جرنًا، أدركت مسعودة أنّ ابنتها شنّة قد رحلت مع زوجها سنجر، وعرفت أنّها لن تراها مرّة أخرى، أصبح طعامها ونظافتها رهنًا لإحسان الجارات، وازداد صوتها خفوتًا يومًا بعد يوم وهي تردّد: «أنا هنا.. أنا مسعودة»، تعاظم انحناؤها حتى تساءلت الجارات إن كانت مسعودة ستموت وتُدفن محنيّة أم سيستقيم عودها بعد الموت، بدأت ذكريات بعيدة وغائمة تتّضح في عقلها في حين يغيب الحاضر القريب وينطمس أكثر فأكثر، بدأت تستعيد حوادث لم تكن تظنّ أنّها ستتمكّن من مواجهة عقلها بها يومًا، أصبحت ترى بوضوح فجرًا كثيفًا معتمًا كانت ذاهبة فيه للاحتطاب، حين سمعت وشوشة في غرفة التاجر سليمان فلم تتمالك طبعها الفضولي وألصقت وجهها في النافذة الخلفيّة.

كان وزوجه ينامان في غرفتين منفصلتين منذ ولادتها لابنه عبد الله قبل ثلاثة أسابيع، دقّت أخته الباب ودخلت مباشرة، اعتدل في فراشه: «خير؟»، رمقته بنظرة طويلة: «حرمتك».

تناول دشداشته من المشجب الحديدي المشغول ولبسها، واجه أخته: «ما لها حرمتي؟ قلت تزوّج واترك العبدات، تزوّجنا، قلت

ما ولدت وولدت صبي، أيش تريدي الآن؟».

كان جالسًا على طرف السرير، وهي واقفة قبالته، قالت بصوتها الخفيض دومًا: «شفتها هي وسليم عبد الشيخ سعيد تحت شجرة الريحان».

أخذ التاجر سليمان يرتجف، فأكملت دون أن تغيّر نبرة صوتها: «ولا يهمّك، خلّيها عليّ». وخرجت.

كان على التاجر سليمان أن يسافر ذلك الصباح بالذات إلى صلالة لشؤون تجارته، وبعد أن عاد بعد ثلاثة أشهر كانت زوجته قد ماتت تاركة عبد الله الرضيع في رعاية عمّته، وكان سليم عبد الشيخ سعيد قد اختفى.

وكانت مسعودة قد مسحت هذا الفجر المعتم من عقلها بكلّ قوّة.

أنا لست في هذا المقعد المعلّق بين السماء والأرض أنتظر وصولي الوشيك لفرانكفورت، أنا في حجر ظريفة في الحوش الشرقي من البيت الكبير، عيوني مفتوحة على القمر المكتمل في السماء، وظريفة تمسّد شعري وتحكي:

كانت عنزة تسكن في بيتها مع أولادها وأكبرهم زيد ورباب، وكلّ يوم تخرج من البيت بعد إرضاعهم، وتحذّرهم قائلة: «لا تفتحوا الباب لأيّ طارق، لئلاّ يأتيكم الذئب، فيأكلكم، ولكن إن طرقت أنا فسأقول: «يو زيد، يو رباب، افتح لأمّك الباب، في قرناتها حشيش حشيش، في ضروعها حليب حليب»[1]، فحينئذ تفتحوا الباب»، فأطاعها الأولاد. وفي أحد الأيّام سمع الذئب العنزة وهي توصي أولادها، ولمّا خرجت، أخذ يدقّ الباب، ويقول: «يو زيد، يو رباب، افتح لأمّك الباب، في قرناتها حشيش حشيش، في ضروعها حليب حليب»، وغيَّر صوته فانخدع الأولاد، وفتحوا الباب فأكلهم الذئب.

---

(١) «يا زيد، يا رباب، افتح لأمّك الباب، في قرونها حشيش حشيش، في ضروعها حليب حليب».

حين عادت الأمّ أخذت تطرق الباب مرارًا بلا فائدة وهي تردّد: «يو زيد، يو رباب، افتح لأمّك الباب، في قرناتها حشيش حشيش، في ضروعها حليب حليب»، وعندما لم يجبها أحد، نطحت الباب بقرونها ودخلت فلم تجد زيدًا ولا رباب.

خرجت العنزة راكضة لتبحث عن أولادها، فمرّت على عنكبوت ثم مرّت على خراف وسألتها، والكلّ ينفي رؤية أولادها، حتى مرّت على حمامة فحين سألتها قالت الحمامة: «مرّ الذئب من هنا، وكان بطنه كبيرًا، لا بدّ أنّه أكل أولادك، الحقي به، ستجدينه نائمًا عند الحصا»، فأسرعت العنزة للحدّاد، وطلبت منه أن يُحِدَّ قرونها حتى أصبحت كالسكّين، ثم ذهبت حيث نام الذئب فنطحته بقرونها وشقَّت بطنه فخرج أولادها، ورجعت معهم للبيت.

بعد كلّ مكالمة ستقفز لندن من سريرها، ستتناثر من حضنها الدببة الورديّة والحمراء، وستتّصل بصديقتها حنان وتقصّ عليها كلّ ما قاله أحمد وهي تدور في الغرفة:

ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم تعرفين كم الساعة؟

ـ اسمعي يا حنان، القصيدة الجديدة التي سيلقيها في مهرجان الشعر العماني القادم مهداة لي.

ـ سو وات؟

ـ سو وات؟ أنت غبيّة؟ أنا ملهمته.. ملاكه.. شيطان شعره.

ـ مبروك، ممكن أرجع أنام بما أنّي ما أفهم في الشعر وأؤمن فقط بتحاليل المختبر ذات النتيجة المؤكّدة؟

في يوم عقد القران مجرّد أن يتودّعا ويخرج من بيت أبيها قُبيل صلاة الفجر، ستتّصل بصديقتها:

ـ حنان.. أنا أسعد بنت في العالم.

ـ ألف مبروك يا حبيبتي تستاهلي.. انتهى اللقاء الغرامي؟

ـ توّ خرج من عندي..

ـ باسك؟

ـ لا . . . لكن قال لي إنّ زواجنا انتصار على طبقيّة المجتمع المقيتة، وتتويج للحبّ الصادق.

ـ هاها . . يعني ألقى لك محاضرة بدل ما يستغلّ فرصة أنّ قرانكم عُقد ويبوسك؟

ـ دمّك ثقيل . .

لم تعد صراحتها تؤلم لندن فقد اعتادت عليها، كان موقفها واضحًا منذ البداية: «أحمد؟ الشاعر؟ اللي كلّ يوم مع واحدة؟ حتى شعره ثقيل على الروح . . . أيش صبّك عليه؟ . . . حتى شكله ما عارف لنفسه مرّة يطلق لحيته ومرّة يحلقها، مرّة أشوفه بدشداشة ومرّة بالجينز، مرّة شعر طويل ومرّة صلعة . . مرّة مطوّع ومرّة حداثي . . . ».

لكن أحمد استمات على لندن: «أنت فتاة أحلامي»، لاحقها بالإيميلات والمكالمات والرسائل النصّيّة، بالشعر بالأغاني بالصور، حتى تعلّقت به.

اكتشفت أمّها الأمر فحبستها في غرفتها وكسرت هاتفها، كلّما قاومت لندن أمعنت أمّها في العناد، كأنّما أرادت أن ترى إلى أيّ حدّ ستتمسّك ابنتها بحلمها، أو كأنّما كانت تعاقب نفسها وليس ابنتها العاشقة، كان أبوها محتارًا وحين كسر السوط أخيرًا ووافق على زواجها انسحبت أمّها.

في يوم عقد القران بعدما خرج الضيوف قبَّل أحمد يديها وقال لها: «تعرفين ما الذي جذبني فيك يا لندن؟ إنّك بنت ما سهلة.. لكن لمّا حبّيت حبّيت بصدق ودافعت عن حبّك في وجه التخلّف والقبح».

منذ عرفته وهو يكرّر هاتين الكلمتين باستمرار: «التخلّف والقبح»، أحيانًا يضيف لهما «الطبقيّة المقيتة»، ولمّا رأته يضحك مع رئيسة الجماعة الأدبيّة بالجامعة وهو يمسك بيديها الاثنتين ارتبك، خرجا معًا بسيّارتها وابتدأ الكلام الدفاعي على هجوم لم تبدأه: «اسمعي يا لندن.. أنت خطيبتي وحبيبتي.. لكن لا تحاصريني بالغيرة والأنانيّة والتملُّك والاستئثار.. الأنانيّة قبح، والغيرة تخلّف، والتملّك من مخلّفات عصور الطبقيّة المقيتة.. أنا شاعر.. مثقّف.. روحي حرّة طليقة.. مثل الحمام.. آه ذكّرتني بمحمود درويش.. يطير الحمام.. يحطّ الحمام.. القيود تخنقني.. تخنق إبداعي.. تخنق شاعريّتي المتدفّقة.. أريد امرأة تفهمني.. أنا الرّيح وهي الشجرة.. تمدّ جذورها في الأرض وأحلّق أنا في السماء». في تلك الظهيرة لم تقل لندن شيئًا، لفَّت عليها معطفها الطبّي، وأكلت سندويش الفلافل الذي اشتراه لها من مقهى نصير، وفكّرت أنّها ترى ذقنه بوضوح، ولم يكن وجهه مرفوعًا بهذا المقدار من قبل، ما يقابل مستوى نظرها هو ذقنه وهي تنزل وترتفع بالكلام والسندويش.

بعد أسابيع اكتشفت صورة رئيسة الجماعة الأدبيّة في محفظته

الشخصيّة فمزّقتها في غضب، صرخ فيها أحمد: «يا غبيّة هذه الصورة لأجل البيانات لكتيّب الحفل.. تصرّف غبي ومتخلّف وقبيح» ولم يتكلّما من يومها.

أحسّت لندن أنّها تحتاج لمن تبوح له، لكنّها لا تريد أن تتعرّض لغضب حنان وسخريتها، تعرف رأيها جيّدًا، ستقول لها: «أنا حذّرتك منه، كلّ قصيدة جديدة مهداة لبنت جديدة، ثم كيف سمحت له يشتمك؟» لكنّ حنان لا تفهم، لندن متأكّدة أنّه يحبّها هي وأنّه صادق معها، ما لها وحياته السابقة؟ إنّها لا تعنيها في شيء، المهمّ مستقبلهما معًا، وهي لا تريد الفشل، تخاف الفشل، يرعبها الفشل.. كانت الساعة الثالثة صباحًا واتّصلت به.

في اليوم التالي تجوّلا بسيّارته معتمة النوافذ طويلاً على الشاطئ، رفض اقتراحها بالنزول لأنّ الجوّ حارّ، وأخذا يأكلان الآيس كريم ويتحدّثان عن المستقبل: «مجرّد أن أُنهي سنة الامتياز هذه سأفتح عيادة خاصّة، وبعد ما تتخرّجين أنت تنضمّين لي.. أبوك سيساعدنا لنفتح العيادة وبعد أن أشتهر كشاعر عظيم سأتركها لك وأتفرّغ للمجد.. ستكونين زوجة أعظم شعراء عمان والعالم العربي بأسره..» وضمّها في ظلام السيّارة إلى صدره.

لندن كانت تحلم أن تعمل فترة في مستشفيات الحكومة بعد سنة الامتياز حتى تكتسب خبرة كافية، ثم تسافر إلى كندا لإكمال تخصّصها في طبّ الأطفال، وبعد ذلك قد تفكّر في موضوع العيادة، لكنّها لم تستطع مناقشته، كانت رائحة شامبو شعره تملأ

أنفها واستسلمت لحضنه. تخيّلت شكل أطفالهما القادمين وأحاطته بذراعيها. لم تكن لندن عمياء، كانت ترى كلّ الإشارات ولكنّها تمنع عقلها من استقبالها.

قالت حنان: «مع احترامي لكلّ الحبّ والمحبّين والأغاني ونزار قبّاني والورود والقمر وأمّ كلثوم وعبد الحليم حافظ والسهر والنجوم وكلّ الشعراء، لكنّ الحبّ قلّة عقل، لا سمع ولا بصّ، لا تفكير ولا تدبير، واحد شفتيه كذا مرّة في قاعات المحاضرات وفي أمسيات شعريّة وكلّمتيه في الممرّات دقائق وبعدين في التلفون، أكلتوا شطفة سندويشة في كافتيريا المستشفى وشربتوا غارشة بيبسي عند المواقف قدّام الكلّيّة وقلت أموت فيه؟ وما أقدر أعيش من دونه؟ هو هوائي ومائي وشمسي وقمري؟ أيش هذي الخرابيط؟ ويطلع جدّه بيدار عند أبو جدّتك من خمسين سنة وتحلف تذبحك لو تزوّجتيه؟ يضربوك ويكسروا تلفونك ويحرموك أيّام من الكلّيّة عشان أيش؟ رجل عادي مثل آلاف الرجال في العالم؟ حتى طوله ما يوصل طولك.. وتقولي لي حبّ وصبر وتضحية ولو ما تزوّجته بانتحر؟ وإذا ما كلّمته ما أتنفّس وإذا ما شفته ما أعيش؟ أيّ حبّ يا لندن؟ أنت عرفتيه عشان تحبّيه أصلاً؟.. تو بتقولي مكالمات التلفون والإيميل، هنا بالضبط خطأك، لمّا ما تحتكّي بشخص احتكاك حقيقي وتسمعي بسّ صوته وكلامه هو عن نفسه تكوّني له الصورة اللّي أنت تتمنّيها وليس الصورة الحقيقيّة، أنت ما تعرفيه أبدًا.. شعر ومكالمات حالمة والسلام! وبعدين يا أتزوّجه يا أنتحر؟ وأنا كافرة بالطبقيّة المقيتة؟.. أنت ما تحتاجي لشعاراته

عشان تثقي بمبادئك.. ماذا فعل هو من أجلك؟.. ترك أمّك تعذّبك وجدّتك تهدّدك وهو يتفرّج بانتظار النتيجة؟.. هذا رجل هذا؟.. صراحة الزواج عندي لا علاقة له بالحبّ، الحبّ أحلام والزواج واقع: حياة ومسؤوليّة وأولاد بلا أوهام، الشخص المناسب اللي يكرمك ويحترمك وتنسجمي معه ويكون أب تفخري به لأولادك، ما يشعر معك بعقدة نقص ولا يعيّرك بحبّك.. قال الحبّ قال.. والله كنت أظنّك عاقلة يا لندن ومهتمّة تتخرّجي وتسافري كندا للتخصّص حتى جاءت هذي السالفة.. أيش بتعملي الآن لو ظلّت أمّك تضربك وما زوّجوك منه؟».

قالت لندن: «سأنتحر».

وتركتها حنان، جاءها قرار التعيين في ظفار، لا يمكن أن ترفض، إذا رفضت تطير الوظيفة للأبد، ومن أين ستجيء بالواسطة حتى يعيّنوها في مسقط وتظلّ مع أسرتها؟ لا تعرف أحدًا ذا نفوذ، وإذا رفضت وطارت الوظيفة ستتبخّر كلّ أحلام أسرتها، أبوها المتقاعد، أمّها المريضة، أخوها الذي خطب من سبع سنين ولم يقدر براتبه الضئيل على دفع المهر حتى الآن، حزمت حقائبها وسافرت للجنوب وهي تحلم بأوّل راتب وبعرس أخيها.

وأخذت لندن تتّصل بها باكية كلّ يومين:

ـ يا حنان كرهت كلمات الحرّيّة والثقافة والطبقيّة، أصبحت أشكّ في نفسي، تصوّري أنّه يفحص تلفوني في كلّ مرّة نلتقي فيها ليتأكّد من الأرقام لا يكون شي رقم غريب!!

فتتنهّد حنان: ما أعرف أيش أقول لك يا حبيبتي، هذا الرجل ما يستحقّك..

ـ ما عدت فاهمة شي.. كأنّي عايشة في دوّامة.. فجأة بدأ يلاحظ سمرتي ونحافتي، كأنّه ما شافني من قبل..

ـ والله ما يستحي على وجهه.. ليش ما تواجهيه وتحاوريه؟

ـ حاولت، وفي كلّ مرّة كان يقول لي: لا تظنّي أنّك أحسن منّي، أنا الرجل هنا، وأسرتك وعقارات أبوك وتجارته ما تعني لي شيء، مع أنّي لم أذكر له أسرتي بالمرّة.

ـ الله الله.. هذا الرجل مريض يا حبيبتي وأحسن ما تورّطي نفسك أكثر.. ما زلتوا في فترة العقد.. مثل الخطوبة يعني..

ـ تريدينا ننفصل يا حنان؟ أحمد حبيبي، حلم حياتي، لازم نحلّ مشاكلنا، ما أريد حبّي الأوّل يفشل، ما أريد مقاومتي لأهلي تروح هدر، أريد أثبت نجاحنا للعالم، لأمّي وأبي وجدّتي وزملائنا وكلّ العالم، ما أريد أكون مطلّقة.

لكن حبّها الأوّل فشل، فشل قبل أن تعترف بذلك بوقت طويل، وبعد إهانات وآلام طلبت الخلع أخيرًا وامتنعت عن رؤيته.. وقف عند باب سيّارتها في مواقف الكلّيّة وتوسّل إليها أن تكلّمه، استند على الباب بجسمه مانعًا إيّاها من دخول السيّارة: «يا لندني لا تتركيني.. أنت لي.. أنت فتاة أحلامي.. والله العظيم آسف، لم أقصد ضربك، كنت غاضب، والله العظيم آسف

سامحيني، أقبّل قدميك سامحيني، لم أقصد الكلام اللّي قلته.. لا أريد أن أفقدك، أنت ملكي.. أنت لندني.. أنت انتصاري وإلهامي.. أنت لي.. ستتركينني وتكونين لآخر؟.. والله ما يحصل.. أنت ملكي.. فتاتي.. زوجتي.. أقبّل يديك لا تتركيني.. سنتزوّج في الموعد المقرّر ونذهب شهر العسل أوروبا.. ونفتح العيادة معًا.. نسيت أحلامنا يا لندن؟.. هنت عليك؟.. أنت لي.. لندني.. إلهامي.. حبّي.. ملكي.. أنت ملكي.. ملكي».

تركت لندن مواقف السيّارات كلّها ودخلت الكلِّيّة ثانية، ولا يكفي أن تردّد: «لست ملكك. لست ملك أحد» حتى تُشفى. الطعون النافذة لا تُشفى بتطهيرها بمحلول مطهّر والتظاهر بأنّها مجرّد خدوش.

أصبح الشوق البائس لوجهه القديم وصوته القديم سلاحًا يشهره قلبها في وجهها، «أكرهك، أكره صوتك، أكره صورتك»، ومزّقت كلّ صوره، ولكنّ لندن لم تشعر في صميمها بالكراهية التي تستجديها وإنّما بالمرارة والألم الفاقع العنيف.

حين استقرّ ناصر في عمان، وولدت طفليها الأخيرين، وأصبح لا يكاد يخرج من البيت إلاّ للعمل، قرّرت خولة أن تطلب الطلاق.

ظنّ الجميع أنّها جُنّت، أو أنّها تخفي أسرارًا رهيبة دفعتها لهذا القرار المجنون.

لكنّ خولة لم تكن تخفي أيّ شيء.

كانت عاجزة ببساطة عن احتمال الماضي. كلّ شيء أصبح هادئًا الآن، وفايز أصغر أولادها الخمسة قد أصبح في الثانويّة، منى مخطوبة لمهندس مرموق، وأحوال الآخرين مستقرّة تمامًا.

كلّ شيء هادئ لدرجة أنّه يكاد يكون ساكنًا: حياتها الزوجيّة وأمومتها وصداقاتها.

تنفّست الصعداء، وتوقّف قلبها عن الغفران.

لم تعد تحتمل الماضي، كلّ شيء فيه يتضخّم ويخنقها. كلّ ليلة تكبر صورة البنت الكنديّة في علاّقة مفاتيح السيّارة وتنام على وسادة خولة.

كلّ يوم تخرج الأيّام التي قضتها وحيدة في غرف الولادة في المستشفيات وتنقضّ عليها.

كلّ يوم ترى ملابس أولادها الذين كبروا دون أن يلبسوها لأنّ أباهم لم يعرف أعمارهم.

كلّ يوم ترى السنوات التي مرّت وفراشها بارد، وجمالها مهجور، والجيران يوصلون أولادها للمستشفى إن مرضوا، وأخواتها يقرضنها إن احتاجت، وأمّها تؤنّبها، والناس ينظرون لها بعين الشفقة.

يأتي الماضي، كلّ يوم، بحرابه المخيفة، ويغرسها في روحها.

آه يا خولة!

تلك الغابة الوحشيّة المليئة بالأحراش بداخلك؟

هل كانت نائمة؟ هل كنت تغمضين عينيها؟ هل كنت تغطّين نباتاتها السامّة؟

آه فلتريها الآن. إنّها تثقب الملاءات التي حاولت تغطيتها بها.

ماذا تريد؟

لا تعرفين قطعًا. أنّى لك أن تعرفي؟

كلّ درجة في السلّم الهابط إليها تتحطّم بعد خطوتك مباشرة ويتهاوى بتهاويها درب الرجوع أو الملاءات.

إنّها لا ترى الآن لطفه وعطفه وتفانيه في خدمتها وخدمة

الأولاد، لا ترى إخلاصه واحترامه الجمّ.

ترى غرف الولادة الخالية إلاّ من أنينها والمولود، ترى صباحات الحمل الطويلة بغثيانها وبردها، تسمع رنين هاتفه بعد منتصف الليل، تسمع وشوشاته ولهاثه في الهاتف، تسمع أزيز الطائرات التي لم تتوقّف لعقد كامل عن المغادرة إلى كندا، تسمع صراخ الأطفال وضجيجهم، وتحسّ برد فراشها.

وخولة تحمل كلّ ذلك على ظهرها، ويتضخّم كلّ يوم، وظهرها انقصم.

توسّل إليها بكلّ شيء لتتراجع عن قرارها ولكنّ أذنيها لم تعودا تسمعان صوته منذ زمن طويل.

توسّل إليها، الكلام الذي كان سيذيبها بلا شكّ ولا تردّد اصطدم بطبلة أذنها المخشوشنة وارتدّ عنها كالصفائح الحديديّة الصدئة. ليس الذنب في الكلمات. الذنب في السنوات.

في كلّ ليالي شتائها ونهارات صيفها.

السنوات سحبت الكلام وراءها وحين نبت على ظهرها أنكرته. أكلته كما تأكل بعض الكائنات صغارها، السنوات كائن أيضًا، وخولة لا تنسى كلّ ما حلّ بها، يومًا يومًا وساعة ساعة ولحظة لحظة، كلّ شيء فيها فتّت الروح بجدارة وعناية بالغة. كلّ يوم غرس منجله في التربة الباطنيّة الأعمق وقلّبها وذرَّها. ولم يبق في قاع الروح تراب نديّ يُصلح الزرع.

أرادت أن تقول له: كان أيّ شيء سيكفيني، أيّ شيء سيملأ حقل قلبي بالثمار النافعة.

أيّ شيء سيملأ السلال الممدودة لك وحدك.

أيّ شيء: رسالة ورقيّة من كلمة واحدة.

رنّة بعد منتصف الليل، منام خاطف لا تولّي فيه ظهرك، خطوة صغيرة واحدة، التفاتة بطيئة واحدة.

أيّ شيء.

حتى زمجرة غضب، حتى تنهيدة ضجر، حتى هديّة رخيصة.

أيّ شيء كان كثيرًا.

لكنّ أيّ شيء لم يأت.

أيّ شيء.

والآن كلّ شيء لا يكفي، كلّ شيء أقلّ من أن يبرعم ورقة واحدة في حقل صعقه الشتاء.

ولكنّها لم تقل شيئًا، كيف لرجل قضى السنوات العشر الأخيرة متفانيًا في خدمة بيته وأولاده أن يفهم أنّ العشر سنوات الأولى قد انتفضت بذرتها بغتة في روح زوجته ونمت شوكًا يمزّقها؟

كنّا على شاطئ السيب، اتّكأت سيّارتي اللكزس على أحد أعمدة الإنارة الجديدة، التي تشبه نوعًا ما برج العرب في دبي، كان محمّد يجلس بجانبي، قال لي إنّها تغار عليه بشكل جنوني، وتمنعه من فعل ما يحبّ، وتراقب هاتفه. مالت السيّارة منحنية أكثر على عمود الإنارة، وأنا قلت لمحمّد: «من هي؟» فنظر إليّ بدهشة شديدة وقال: «زوجتي، ميا».

سمعت ضحكة خافتة تنطلق من المقعد الخلفي، ضحكة مكتومة وهازئة، ضحكة أعرفها جيّدًا، أخرجت كامل ذراعي من النافذة، وقلت دون أن ألتفت: «لا تضحك عليّ يا أبي، أنت لست هنا، أنت متّ في السنة التي وُلد فيها محمّد». لكنّ الضحكة انطلقت باندفاع أكثر هذه المرّة ورأيت في مرآة السيّارة الأماميّة لحية أبي البيضاء تهتزّ.

مرق سالم بجانب النافذة وهو يركض، وشبّان أكبر منه يطاردونه بسيّارة بورش، التفتّ إلى محمّد فوجدت لندن تبكي، قالت: «أنا ناجحة، أنا ناجحة» ومحمّد في حجرها، يهزّ رأسه في حركة من حركاته العصبيّة الرتيبة. تلاشت السيّارة وسرنا أنا ومحمّد

على الشاطئ، كان محمّد يبدو كيافع طبيعي، وكان يصفّر بمرح، وفجأة قال لي: «لم أعد أحتمل يا عبد الله، ستقتلني غيرتها»، التفتُّ إليه: «من هي؟» قال: «زوجتي».

أمسكت بكمّ دشداشته الرماديّة: «ولكنّك صغير، ومريض، ولا زوجة لك».

صرخ: «ستقتلني زوجتي، إنّها تراقب هاتفي، إنّها تحاصرني». تشقلب على الأرض، انتحب، صاح: «تنحني على ماكينة الخياطة وتمسّدها ولا تنحني عليّ»، وبدأ اللعاب يسيل من فمه وهو يكرّر تحريك يده بعصبيّة. وأنا انهلت عليه بالضرب مردّدًا: «فضحتنا، اسكت».

أخذ أبي السوط من يدي، ورماه في البحر، قلت له: «لكنّك ميّت، كيف عدت؟».

فمضى ولم يلتفت، صحت فيه: «خذه معك، خذ محمّدًا معك يا أبي».

أظلمت الدنيا، سمعت صوت سيّارتي وهي تنطلق مبتعدة، لمحت لندن خلف المقود، حملت محمّدًا بين ذراعيّ، وفكّرت أنّه مثل السمكة، اقتربت من البحر الهائج، وغصت فيه حتى صدري، حين فتحت ذراعيّ انزلق محمّد مثل السمكة، ورجعت دون أن أبتلّ.

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

حين رأت ميا عليّ بن خلف، كان قد أمضى سنوات في لندن للدراسة وعاد بلا شهادة. لكنّ رؤيته صعقتْ ميا في الحال. كان طويلاً لدرجة أنّه لامس سحابةً عجلى مرقتْ في السماء، ونحيلاً لدرجة أنّ ميا أرادت أن تسنده من الريح التي حملت السحابة بعيدًا. كان نبيلاً. كان قدّيسًا. لم يكن من هؤلاء البشر العاديّين الذين يتعرّقون ويناموِن ويشتمون. «أحلف لك يا ربّي أنّي لا أريد غيرَ رؤيته مرّة أخرى».

رواية من سلطنة عُمان تتناول تحوّلات الماضي والحاضر، وتَجْمع، بلغةٍ رشيقةٍ، بين مآسي بشر لا ينقصهم شيء ومآسي آخرين ينقصهم كلُّ شيء.

جوخة الحارثي كاتبة وأكاديميّة من سلطنة عُمان. صدرت لها مجموعاتٌ قصصيّة «مقاطع من سيرة لبنى إذ آن الرحيل»، «صبيّ على السطح»، «في مديح الحبّ»، ورواية واحدة «منامات».

